

نظرة علمية في
أهل التبليغ والدعوة
(٧)
عمل الدعوة
وأصول
التربية والتزكية
تأليف الشيخ
أيمن أبو شادي
الإجازة العالية من كلية الشريعة
جامعة الأزهر الشريف
الإجازة بالأسانيد في الحديث والأصول
والفقه والعقيدة



نظرة علمية

٧
عمل الدعوة
وأصول التربية والتزكية

في

أهل التبليغ والدعوة

وبآخره ملحق لفتاوى ورسائل كبار العلماء

في العالم الإسلامي

في أهل التبليغ والدعوة

تأليف

الشيخ أيمن أبو شادي

الإجازة العالية من كلية الشريعة – جامعة الأزهر الشريف

الإجازة بالأسانيد في الحديث والأصول والفقه والعقيدة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠١٨/١٤٥٩٩

الرقم الدولي: 978-977-449-452-9

بسم الله الرحمن الرحيم

كتابنا هذا ...

قيمة الإنسان عند الله تعالى تُقاس بقيمة جهده..

كلما زاد جهده زادت قيمته عند الله..

إلى أن يزيد على الملائكة..

أما إذا كان كل جهده على الأشياء المادية

فالدنيا كلها لا تساوي عند الله جناح بعوضة

ويكون صاحبها عديم القيمة عند الله عز وجل

كالأشياء التي يبذل كل جهده فيها ..

ويترك بسببها الأعمال الصالحة..

الله تعالى غني عن العالمين في نشر دينه..

ولكنه شرَّف به الإنسان المسلم..

لينال به ثروة الأعمال العظمى الباقية الأبدية..

التي بعكسها ثروة الأشياء المادية الحقيرة الفانية..

وثروة الجهد للدين لا يعطيها الله إلا لمن أحبه..

فكل جهد نتحمله للحصول على هذه الثروة يكون مقبولاً

لأجل الحصول على هذه الثروة الغالية..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تَعَّطف بالعز وقال به، والذي لبس المجد وتكرَّم به، والذي لا ينبغي التسبيح إلا له، من أحصى كل شيء عددا، وقضى كل شيء بعلمه، ذي الفضل والطول..

وأصلي وأسلم وأبارك على خير رسل الله أجمعين، وسيد المرسلين ورحمة الله للعالمين، سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين ...

وبعد...

الدنيا ليست مجالاً لظهور آثار الأعمال الصالحة، فالعبد يجتهد في الأعمال ولا يرى أثر هذه الأعمال في الدنيا، لأن الدنيا كلها حقيرة، لو اجتهد إنسان وجمع كل الدنيا، وهذا بالطبع محال أن يحدث، ولكن حتى لو حدث فما جمع منها إلا جناح بعوضة، فالدنيا قليلة وليست مؤهلة لظهور آثار هذه الأعمال...

ففي الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ".

إذا كانت هذه الكلمة من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم لها كل هذا الأثر، فكيف بكل أوامر الله؟..

ففي الدنيا تظهر فقط بركات هذه الأعمال الصالحة، أما الآثار الحقيقية لهذه الأعمال فهناك يجدها في الدار الآخرة، والآخرة خير وأبقى، والذي يتعجل آثار هذه الأعمال في الدنيا هو يُخطئ، ويضع

الشيء في غير محله، وكذلك يكون سببا في نقصان رأس ماله من الأعمال الصالحة عند الله يوم القيامة...

هناك طريقان في هذه الحياة، طريق روحاني وطريق مادي، الطريق الروحاني منتهاه الجنة..

والطرق الروحانية لها قيمة عظيمة حتى أصغر هذه الطرق وأقلها "الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان"[١].

ووسائل الطريق الروحاني أجورها عظيمة، فكيف بأجور الأعمال نفسها؟ فإذا كان الجهد الذي تؤدي به الأعمال له أجر تحار فيه العقول اللبيبة، فكذلك وسائل هذا الجهد، حتى أن الغبار الذي يأتي على أجسادنا في سبيل الله تعالى يحجز عن الإنسان دخان جهنم...

فإذا كانت هذه قيمة الغبار وهو من وسائل الجهد فكيف بأجر الجهد نفسه؟..

"ركعتي الفجر خير من الدنيا وما فيها"[٢] هذا في ركعتي السنة فكيف أجر الفريضة "بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة"[٣]...

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الإيمان، وأخرجه مسلم كتاب الإيمان.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٣) رواه أبو داود (١/١٥٤)، الترمذي (١/٤٣٥)، وهو عند البيهقي (٣/٦٣).

"يا دعوة النبوة.. "

تكلم إن شئت عن الحنَّان

ودع الحروف تُسبح ربها...

خذها إليك مع الأشجان

لا تمسك زمامها...

للحرف صوت بألف لسان...

يصدح في الأكوان... حبًّا للرحمن

هل تخشى نظرتك الأولى؟

هل تعرف تلك الألوان؟

دعني أسير خلال الضوء بعصياني...

دعني أذوق حلاوة ذكري بعد إيماني...

لا تترك ظلي يُدير زماني...

لا تدفع صوتي إلى النسيان...

اترك قدمي تدبُّ أمامي...

تسير بقلبي إلى الأحزان...

كل الطُّرق تُحدث نفسي

كيف سأمضي إلى العنوان...

كيف سأقف الآن برحلي...

كيف أُقدِّم صدق بياني...

قلبي الآن يُسبح ربي

قلبي الآن يُضيءُ مكاني...

أيمن أبو شادي

الشبهة السابعة

جهد الدعوة والتبليغ

وأصول التربية والتزكية

الجهد على الإنسان إنما يتحقق في طريقين، جانب التقوى وجانب الفسوق، والدعوة إلى الله تعالى المقصود منها تحصيل التقوى وصفات الإيمان...

والخروج في سبيل الله تعالى والدعوة إليه إنما هو وسيلة ، يعرف الإنسان من خلالها طريق الفلاح والنجاح فيتبعه، وطريق الخسارة والندامة فيجتنبه، وإنما يتحقق له ذلك بامتثال أوامر الله تعالى على هدي النبي صلى الله عليه وسلم استجابة لوصية النبي الأكرم والرسول الأعظم "**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا كتاب الله وسنتي**"[1].

وسعيًا إلى طرق الله المستقيمة، بعيدًا عن طرق الفُرقة العقيمة ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (النحل: ١٢٥).

والخروج في سبيل الله والدعوة إليه هو وسيلة، يعود بها الإنسان إلى الطريق الذي اختاره الله عز وجل للاجتهاد فيه، وهو تحقيق العبودية له سبحانه وحده لا شريك له ﴿ **بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾. (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) (الزمر).

---

(١) الحديث رواه الإمام مالك في الموطأ، مرسلا، ووصله ابن عبد البر. (انظر تنوير الحوالك ٢ / ٢٠٨) ، ورواه الحاكم عن ابن عباس، وعن أبى هريرة، وبين صحة الحديث ووافقه الذهبي _ (انظر المستدرك وتلخيصه ١ / ٩٣) .

فنحن خرجنا للدعوة في سبيل الله تعالى لتربية أنفسنا.. ، وما معنى تربية أنفسنا؟ معنى تربية أنفسنا أن نقيمها على المقصد، وما هو المقصد؟ المقصد ذكره الله تعالى لنا وبينه في كتابه العزيز بقوله ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦).

وما هي العبادة؟ العبادة هي معرفة الله تعالى حق المعرفة وتمام محبته ، والخضوع والطاعة الكاملة لأداء أوامره المتوجهة إلينا في كل حين .

فالدين هو الفطرة، والراحة فيه، والذي يترك الدين كمن يترك قدميه ويمشي على يديه..

كم يمشي؟ ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الملك: ٢٢).

الطمأنينة والراحة في الدين بتحقيق الإيمان والأعمال الصالحة فللحصول على الإيمان نحن نتكلم وندعو بكلام الإيمان واليقين، في بيئة الإيمان واليقين، وللحصول على الأعمال الصالحة، نحن نصنع حلقات تعليم الفضائل، ونستمع إلى كلام الله وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم حتى يأتي في قلوبنا اليقين وتتأثر قلوبنا بالوعد والوعيد فنقبل على الطاعات ونجتنب المنكرات.

شجرة الإسلام جذرها الإيمان، والساق هي العبادات، والأغصان المعاملات والأوراق هي المعاشرات أما الثمار فهي الأخلاق.

إذا جاء الفساد في العبادات والمعاملات والمعاشرات والأخلاق، **فنحن نجتهد لإصلاح الإيمان واليقين لأنه الأصل ولأنه به يصلح كل شيء**

قد يقول القائل هذا الترتيب في زمن الجمل، أما الآن فالتغيير نريده بسرعة، وعندنا الطائرة، نأخذ الماء ونلقيه على الشجرة من أعلى فتورق الأوراق وتشتد الساق وتخرج الثمار، ونحن نجيب هذا القائل بأنك مهما اجتهدت على وصول الماء إلى كل أجزاء الشجرة التي ذكرتها، دون وصوله إلى جذرها، فلن تتحصل على نتيجة، ولا على الثمرة المنشودة.

هكذا من يجتهد لإصلاح أحكام شجرة الإسلام، من العبادات والمعاملات والمعاشرات والأخلاق، من دون طريق الإيمان الذي هو جذر شجرة الإسلام هو لن يتحصل أبدًا على الإصلاح المنشود، **فجميع الأنبياء جاءوا بالدعوة لإصلاح الإيمان أولاً ثم العبادات والمعاشرات والمعاملات ثم السياسات أخيرًا.**

والخروج في سبيل الله تعالى وسيلة لتعود به هذه الأمة إلى مقصد وجودها ومسئوليتها، والوظيفة التي اختارها الله تعالى لكل فرد فيها، **وهو هداية البشرية والسعي لنجاة الإنسانية** ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(آل عمران: ١١٠).

هناك في أذهان الناس أسئلة كثيرة مختلفة عن هذا الجهد، ومقصد هذا الجهد، فالناس تسأل عن مقصد الخروج وهم نسوا مقصد وجودهم، في حين أن هذه الأمة بغير الاستثناء، كانت تعرف مقصد وجودها وغاية حياتها، فوجب رجوع الأمة إلى مقصدها.

جهود الناس المختلفة للدين ليس هو المقصود الأصلي لها، والصحابة رضي الله عنهم عبروا عن مقصد وجود هذه الأمة، حيث قالوا "**إن الله ابتعثنا**" فمقصد الجهد أن نرغب الأمة على القيام على وظيفتها ومسئوليتها، ومقصد وجودها في الدعوة إلى الله تعالى والبلاغ لدينه، وأن جميع البشرية يدخلون في دين الله أفواجا.

مقصد الجهد أن تفهم الأمة مقصودها، وأنها نائبة عن الرسول صلى الله عليه وسلم لختم النبوة في مسئولية البلاغ، وأن تفتح الأبواب لدخول البشرية في دين الله تعالى كافة.

نحن نتفكر كم النقصان في الأمة لترك هذا المقصد، هل هو عمل واحد مثل الصلاة أو الزكاة أو غير ذلك؟ .

وهل عدم دخول الناس في دين الله تعالى شيء صغير هين؟ .

فعندما كانت الأمة مشغولة بالدعوة إلى الله تعالى، كان الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، وتقام كل أعمال الدين من صلاة وزكاة وصوم وغير ذلك على الكمال والتمام.

وفي نظام العبادات كما أن الله تعالى حدد أركان وشروط العبادات، وليس على نظام أي أحد، لأنها عند ذلك لن تكون مقبولة، هكذا أعطى الله تعالى النظام للأنبياء لإقامة دينه وأوامره في الأرض، وأول شيء كان الدعوة إلى الله تعالى وتعظيمه، وبيان كمال قدرته وقيوميته والإيمان به، فما أتى نبي من الأنبياء فدعى أولا إلى الصلاة أو الصوم أو الحج أو أي من العبادات..،

بل أول ما يبدأ يكلمهم عن الله تعالى، والإيمان بالغيب والموعود والجنة والنار، حتى تتأهل وترق قلوب الناس، فهذا مُعين من قبل الله تعالى ليس كما نشاء، ففي نظام الأنبياء أولاً الدعوة إلى الله تعالى والتعريف والإيمان به وبالغيب والموعود كما قالت عائشة في صحيح البخاري "كتاب بدء الوحي" "**إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل**

الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل لاتزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدا.." [(١)].

ونحن إذا لم نقطع جميع الطرق التي هي لغير الله تعالى، لا يمكن أن يُفتح لنا الطريق إلى الله عز وجل، وإذا أغلقنا الطرق جميعها التي هي لغير الله تعالى فُتح لنا الطريق إلى الله تعالى، وهي التي أمر الله عز وجل رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يدعو لها ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٨).

وقد غالى البعض فبالغ في الحط على هذه الدعوة المباركة، فرماها بكل دسيسة، ولم يتحرج من أكبر الكبائر، وهو قول الزور وشهادة الزور، فقام ليعلن في الناس بكل وسيلة مقروءة أو منظورة أو مسموعة، بأن هذه الدعوة هي فرقة ضالة صوفية قبورية، يتبركون ويرابطون حول القبور، وينتظرون الكشف والكرامات من أهلها... الخ إلى آخر ما نسمع من بهتان...

---

(١) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي باب تأليف القرآن، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى ٥/٥ وأخرجه الإمام عبد الرزاق في المصنف ٣٥٢/٣ وأخرجه الإمام البيهقي في شعب الإيمان ٤٣٢/٢.

وللإجابة على ذلك نقول: إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وقد غاب عن الكثير من أهل الدين والصلاح الصورة الحقيقية لمنهج التزكية والتربية وعلوم السلوك، والمعروفة في اصطلاح القوم بالتصوف، وكان هناك أخذ ورد لطوائف من أهل الدين والصلاح، بحسب ما ظهر لهم من بعض المنتسبين للتصوف، أو لبعض الممارسات التي وقعت من المحسوبين عليه، على أن من أفضل من جلَّى أمره، وشرح ما يحيط به من جدل وخلاف، ووضح موضع الداء والدواء، وبين الحقائق التي ينبغي أن ينظر إليها بفحص ونظر وإمعان، بغير إفراط أو تفريط، كان هو الإمام الشاطبي

رحمه الله تعالى حيث قال في الاعتصام ج١ ص١١٩: [فصل ما جاء عن الصوفية في ذم البدع وأهلها] :

الوجه الرابع من النقل ما جاء في ذم البدع وأهلها عن الصوفية المشهورين عند الناس:

"وإنما خصصنا هذا الموضع بالذكر وإن كان فيما تقدم من النقل كفاية، لأن كثيرًا من الجهال يعتقدون فيهم أنهم متساهلون في الاتباع، وأن اختراع العبادات والتزام ما لم يأت في الشرع التزامه مما يقولون به ويعملون عليه، وحاشاهم من ذلك أن يعتقدوه أو يقولوا به، فأول شيء بنوا عليه طريقتهم: اتباع السُّنة، واجتناب ما

خالفها حتى زعم مذكرهم وحافظ مأخذهم، وعمود نحلتهم، (أبو القاسم القشيري) أنهم إنما اختُصُّوا باسم التصوف انفرادًا به عن أهل البدع، فذكر أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفاضلهم في عصرهم باسم علم سوى الصحبة، إذ لا فضيلة فوقها، ثم سُمِّي من يليهم التابعين، ورأوا هذا الاسم أشرف الأسماء، ثم قيل لمن بعدهم اتباع التابعين، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن له شدة عناية من الدين: الزهاد والعباد، قال: ثم ظهرت البدع، وادَّعى كل فريق أن فيهم زُهَّادًا وعُبَّادًا، فانفرد خواص أهل السنة المُراعون أنفسهم مع الله الحافظون قلوبهم عن الغفلة باسم التصوف.

هذا معنى كلامه، فقد عد هذا اللقب مخصوصًا باتباع السنة ومباينة البدعة، وفي ذلك ما يدل على خلاف ما يعتقده الجهال ومن لا عبرة به من المدعين للعلم.

وفي غرضي إن فسح الله في المدة، وأعانني بفضله، ويسر لي الأسباب أن ألخص في طريقة القوم أنموذجا يُستدلُّ به على صحتها وجريانها على الطريقة المثلى، وأنه إنما داخلتها المفاسد وتطرقت إليها البدع من جهة قوم تأخرت أزمانهم عن عهد ذلك السلف الصالح، وادَّعوا الدخول فيها من غير سلوك شرعي، ولا فهم لمقاصد أهلها، وتقوَّلوا عليهم ما لم يقولوا به، حتى صارت في هذا الزمان الأخير كأنها شريعة أخرى غير ما أتى بها محمد ﷺ وأعظم

من ذلك أنهم يتساهلون في اتباع السنة، ويرون اختراع العبادات طريقًا للتعبد صحيحًا، وطريقة القوم بريئة من هذا الخباط بحمد الله.

فقد قال الفضيل بن عياض: "من جلس مع صاحب بدعة لم يُعط الحكمة" وقيل لإبراهيم بن أدهم: إن الله يقول في كتابه: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر: ٦٠) ونحن ندعوه منذ دهر فلا يستجيب لنا؟ فقال: ماتت قلوبكم في عشرة أشياء: أولها: عرفتم الله فلم تؤدُّوا حقه، والثاني: قرأتم كتاب الله ولم تعملوا به، والثالث: ادعيتم حب رسول الله ﷺ وتركتم سنته.

والرابع: ادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه، والخامس: قلتم نحب الجنة وما تعملون بها إلى آخر الحكاية .

وقال ذا النون المصري: "من علامة حب الله متابعة حبيب الله صلى الله عليه وسلم في أخلاقه وأفعاله وأمره وسنته".

وقال: "إنما دخل الفساد على الخلق من ستة أشياء، الأول: ضعف النية بعمل الآخرة، والثاني: صارت أبدانهم مهيئة لشهواتهم، والثالث: غلبهم طول الأمل مع قصر الأجل، والرابع: آثروا رضاء المخلوقين على رضاء الله، والخامس: اتبعوا أهواءهم ونبذوا سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، والسادس: جعلوا زلات السلف حجة لأنفسهم ودفنوا أكثر مناقبهم.

وقال بشر الحافي: "رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، فقال لي: يا بشر تدري لم رفعك الله بين أقرانك؟ قلت: لا يا رسول الله، قال: لاتباعك سنتي، وحرمتك للصالحين، ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي، هو الذي بلغك منازل الأبرار".

وقال يحيى بن معاذ الرازي: "اختلاف الناس كلهم يرجع إلى ثلاثة أصول، فلكل واحد منها ضدٌّ، فمن سقط عنه، وقع في ضده: التوحيد وضده الشرك، والسنة وضدها البدعة، والطاعة وضدها المعصية.

وقال أبو بكر الدقاق وكان من أقران الجنيد: "كنت مارًّا في تيه بني إسرائيل فخطر ببالي أن علم الحقيقة مباين لعلم الشريعة، فهتف بي هاتف: كل حقيقة لا تتبعها الشريعة فهي كفر".

وقال أبو علي الحسن بن علي الجوزجاني: "من علامات السعادة على العبد: تيسير الطاعة عليه، وموافقة السنة في أفعاله، وصحبته لأهل الصلاح وحسن أخلاقه مع الإخوان، وبذل معروفه للخلق واهتمامه للمسلمين، ومراعاته لأوقاته".

وسئل كيف الطريق إلى الله؟ فقال: "الطرق إلى الله كثيرة، وأوضح الطرق وأبعدها عن الشُّبه: اتباع السنة قولاً وفعلاً وعزمًا وعقدًا ونية، لأن الله يقول: ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ (النور: ٥٤). فقيل له: كيف الطريق إلى السنة؟ فقال: "مجانبة البدع، واتباع ما أجمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام، والتباعد عن مجالس الكلام

وأهله، ولزم طريقة الاقتداء، وبذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (النحل: ١٢٣).

وقال أبو بكر الترمذي: "لم يجد أحد تمام الهمة بأوصافها إلا أهل المحبة وإنما أخذوا ذلك باتباع السنة ومجانبة البدعة، فإن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان أعلى الخلق كلهم همة، وأقربهم زلفى".

وقال أبو الحسن الوراق: "لا يصل العبد إلى الله إلا بالله وبموافقة حبيبه صلى الله عليه وسلم في شرائعه، ومن جعل الطريق إلى الوصول في غير الاقتداء، يضل من حيث أنه مهتد".

وقال: الصدق: استقامة الطريقة في الدين، واتباع السنة في الشرع".

وقال: علامة محبة الله متابعة حبيبه صلى الله عليه وسلم".

ومثله: عن إبراهيم القمار قال: "علامة محبة الله: إيثار طاعته، ومتابعة نبيه" وقال أبو عمر الزَّجَّاجيُ وهو من أصحاب الجنيد والثوري وغيرهما: :كان الناس في الجاهلية يتبعون ما تستحسنه عقولهم وطبائعهم، فجاء النبي ﷺ، فردهم إلى الشريعة والاتباع، فالعقل الصحيح الذي يستحسن ما يستحسنه الشرع، ويستقبح ما يستقبحه".

وقيل لإسماعيل بن محمد السُلمي جد أبي عبد الرحمن السلمي، ولقي الجنيد وغيره: ما الذي لابد للعبد منه؟ فقال: ملازمة العبودية على السنة ودوام المراقبة وقال أبو عثمان المغربي التونسي: هي الوقوف مع الحدود لا يقصر فيها ولا يتعداها قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (الطلاق: ١).

وقال سهل التستري: "كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء: طاعة كان أو معصية، فهو عيش النفس يعني: باتباع الهوى، وكل فعل يفعله العبد بالاقتداء، فهو عتاب على النفس يعني لأنه لا هوى له فيه" واتباع الهوى هو المذموم، ومقصود القوم تركه البتة.

وقال: أصولنا سبعة أشياء: "التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق".

قال: قد أيس الخلق من هذه الخصال الثلاث: ملازمة التوبة ومتابعة السنة، وترك أذى الخلق، وسئل عن الفتوة؟ فقال: "اتباع السنة".

وقال أبو سليمان الدَّاراني: "ربما تقع في قلبي النكتة من نكت القوم أيامًا، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة" وقال أحمد بن أبي الحواري: "من عمل عملاً بلا اتباع سنة، فباطل عمله" وقال أبو حفص الحداد: "من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، فلا تعده في ديوان الرجال".

وقال أبو القاسم الجنيد: "الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقال "مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة".

وقال: "من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة".

وقال: "هذا مشيد بحديث- رسول الله صلى الله عليه وسلم".

وقال أبو عثمان الجبري: "الصحبة مع الله تعالى بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع رسول الله ﷺ باتباع سنته، ولزوم ظاهر العلم، والصحبة مع أولياء الله بالاحترام والخدمة " إلى آخر ما قال .

وقال: "من أمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلا، نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالبدعة، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ (النور: ٥٤).

وقال أبو الحسين الثوري: من رأيته يدعي مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي، فلا تقربن منه".

وقال محمد بن الفضل البلخي: "ذهاب الإسلام من أربعة: لا يعملون بما يعلمون، ويعملون بما لا يعلمون، ولا يتعلمون ما لا يعلمون ويمنعون الناس من التعلم" هذا ما قال، وهو وصف صوفيتنا اليوم عياذاً بالله وقال: "أعرفهم بالله أشدهم مجاهدة في أوامره، وأتبعهم لسنة نبيه".

وقال أبو العباس بن عطاء وهو من أقران الجنيد: "من ألزم نفسه آداب الله، نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب صلى الله عليه وسلم في أوامره وأفعاله وأخلاقه" وقال أبو إسحاق الرقاشي: "علامة محبة الله إيثار طاعته ومتابعة نبيه".

ودليله قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١) وقال أبو محمد عبد الله بن منازل: "لم يضيع أحد فريضة من الفرائض، إلا ابتلاه الله بتضييع السنن، ولم يُبتل بتضييع السنن أحدٌ ، إلا يوشك أن يُبتلى بالبدع".

وقال أبو القاسم النصراباذي: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك البدع والأهواء، وتعظيم حُرمات المشايخ، ورؤية أعذار الخلق، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات" .

وكلامهم في هذا الباب يطول، وقد نقلنا عن جملة ممن اشتهر منهم ينيف على الأربعين شيخًا، جميعهم يشير أو يصرح بأن الابتداع ضلال والسلوك عليه تيه، واستعماله رمي في عماية، وأنه مناف لطلب النجاة، وصاحبه غير محفوظ، وموكول إلى نفسه، ومطرود عن نيل الحكمة، وأن الصوفية الذين نسبت إليهم الطريقة، مجمعون على تعظيم الشريعة، مقيمون على متابعة السنة، غير مخلين بشيء من آدابها، أبعد الناس عن البدع وأهلها.

ولذلك لا نجد منهم من ينسب إلى فريق من الفرق الضالة ، ولا من يميل إلى خلاف السنة، وأكثر من ذكر منهم علماء وفقهاء ومحدثون وممن يؤخذ عنه الدين، أصولاً وفروعًا، ومن لم يكن كذلك، فلا بد من أن يكون فقيهًا في دينه بمقدار كفايته، وهم كانوا أهل الحقائق والمواجد والأذواق والأحوال والأسرار التوحيدية، فهم الحجة لنا على كل من ينتسب إلى طريقهم، ولا يجري على منهاجهم بل يأتي ببدع محدثات، وأهواء متبعات، وينسبها إليهم تأويلاً عليهم من قول محتمل، أو فعل من قضايا الأحوال، أو استمساكًا بمصلحة شهد الشرع بإلغائها، أو ما أشبه ذلك.

فكثيرًا ما ترى المتأخرين ممن يتشبه بهم، يرتكب من الأعمال ما أجمع الناس على فساده شرعًا، ويحتج بحكايات هي قضايا أحوال، إن صحت، لم يكن فيها حجة، لوجوه عدة، ويترك من كلامهم وأحوالهم ما هو واضح في الحق الصريح، والاتباع

الصحيح، شأن من اتبع من الأدلة الشرعية ما تشابه منها.

ولما كان أهل التصوف في طريقهم بالنسبة إلى إجماعهم على أمر كسائر أهل العلوم في علومهم، أتيت من كلامهم بما يقوم منه دليل على السنة وذم البدعة في طريقتهم، حتى يكون دليلاً لنا من جهتهم على أهل البدع عمومًا، وعلى المُدَّعين في طرقهم خصوصًا، وبالله التوفيق. انتهى ملخصًا كلام الإمام الشاطبي

وممن أجلى هذا المبحث ووضحه غاية التوضيح السيد أبو الحسن الندوي رحمه الله تعالى، وهو ما نقله عنه المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهولي في كتابه الشريعة والطريقة ص١٤٤ حيث قال: "وإنما كتبه الشيخ السيد أبو الحسن الندوي في مقدمة رسالة "أكابري سلوك وإحسان" للعزيز الصوفي محمد إقبال جامع ومفيد جدًا، أختم به هذا البحث: قال: ونحن في استطاعتنا أن نقول: إن مقاصد التصوف وحقائقه أمر إجماعي ومتفق عليه، ولكن أثر فيها الشيئان المذكوران أي الغلو، والإفراط في الوسائل، والإصرار على المصطلحات فلو سألنا أحدًا: هل الإخلاص والتخلق بالأخلاق الحسنة ضروري أم لا؟ هل حصول اليقين ضروري أم لا ؟ التزين بالخصائل الحسنة والإعراض عن الرذائل مثل الحسد، والكفر، والرياء، والبغض والحقد، وحب الدنيا، وحب المكانة، وما إلى ذلك من العادات الرذيلة، وحصول الخلوص من النفس الأمارة، هل ضروري أم لا؟ مستحسن أم لا، ولو في درجة ما، والخشوع

والخضوع في الصلاة والتضرع، والابتهال في الدعاء، ومحاسبة النفس، وحب الله ورسوله والصفاء في المعاملات، والصدق والأمانة، والاهتمام بحقوق العباد والقدرة على النفس الأمارة، وكظم الغيظ، وما إلى ذلك، كل هذا مطلوب أم لا؟ فالإنسان الذي في فطرته شيء من الصلاح، خصوصًا المسلم الذي لا يتعصب سيجيب بالإثبات، بل يزيد عليه بأن هذه الأشياء مطلوبة أيضًا.

وكتاب الله وسنة رسول الله مليئان بهما تأكيدًا وترغيبًا، وقلنا لهم: إن الطريق لنيل هذه الصفات والمقاصد. هو الطريق الذي سماه الناس في القرون الأخيرة بالتصوف: يكون مفاجأة لهم تبدو آثار الغضب واضحة على وجوههم، لأنهم لا يحبون هذا الاصطلاح، ولأنهم يحملون ذكريات غير مرضية لبعض هؤلاء الناس الذين يحملون لواء التصوف ومصطلحاته، ولكن هذا ليس مخصوصًا بالتصوف، ولا من خصائصه، بل هذا حال شامل لكل العلوم والفنون، ولكل دعوة ومدرسة فكر ودعوة إصلاح، وكذا الجماعات الدينية المتميزة بالأسلوب الحديث، ويوجد في الجمعيات الدينية المخلصون والمنافقون والمحققون وغير المحققين، والصادقون وغير الصادقين، وأيضًا العاملون بالإخلاص بدون غرض والناس الذين يعملون لمصلحة أو لأخرى. كل منا يدرك هذه الحقائق تمامًا، ولا مجال لأحد أن ينكرها، وبالرغم من هذا لا يقدر أحد منا أن ينكر ضرورة الجمعيات والعلوم والفنون المذكورة، ولا يستطيع أن

يخالفها لوجود الموانع المذكورة. وهذه كيفية الأشغال والأعمال كلها. مثلا تفكر في الصناعة، والزراعة، والتجارة، وغير ذلك من الأعمال تجد فيها الكاملين والناقصين، تجد فيها الهادين والمضلين، ولكن جربنا ونجرب كل يوم أن هذه الأمور سائرة في طريقها، والإنسان يراعي مصلحته، ومن أجل الناقصين والمدعين لا يترك مصلحته، ولا يجب أن يترك أيضًا الحقائق، ولو كانت تختلف تمامًا عن مصطلحاتها، وفيه معنى قول الشاعر:

الرجل العاقل لا يخوض في الألفاظ، لأن مقصد الغواص الدر وليس الصدف.

وقد تفكرنا في شأن التصوف فوجدنا أن هناك جماعتان، كل واحدة منهما لها وجهة نظر، أولاها لما نعرض عليها أجزاء على حدة تقبلها، ولكن حين تقول لها نحن نسمي المجموعة كلها بالتصوف، تنكرها وتبادر هذه الجماعة بالإنكار والتشديد عليه، وتقول: نحن لا نعرف التصوف، أن للتصوف أضرارًا بالغة بالمسلمين، بل وبالدين أيضًا.

والجماعة الثانية عندما يعرض عليها بأسماء أخرى مثلاً، نقول لها: إن التصوف في اصطلاح القرآن الكريم: التزكية، وفي اصطلاح الحديث يسمى بالإحسان، وعند بعض العلماء المتأخرين فقه الباطن. فنقول نحن لا نختلف في هذا، وكلها منصوص عليها، وفي الحقيقة: لا نستطيع أيضًا أن نحكم على ألسنة الناس، ولو كان

في استطاعتنا لسميناه بالتزكية والإحسان، وتركنا كلمة التصوف كليًّا ولكنه بهذا الاسم صار معروفًا ومشهورًا، لا نستطيع أن نغيره، ولكن ليس هذا من خصائصه، بل إن تاريخ العلوم والفنون كلها مليء بهذه المصطلحات، والمحققون يصرون دائمًا على المقاصد، ويخلون بالوسائل كلها، ويبالغون فيها، بل ينكرون بشدة وبكل صراحة الأشياء التي تتعرض لمبادئ الفن وروحه، ولا تتمشى مع المقاصد بل تنافيها، وقد تكون مضرة له في وقت ما وما مر على تاريخ الإسلام زمن إلا وقد قام من الدعاة والمعلمين ومن أهل التحقيق للفن، للتفريق بين القشر واللب، وبين الحقائق والصور وبين المقاصد والرسوم". انتهى كلام العلامة أبو الحسن الندوي.

ثم ذكر العلامة السيد أبو الحسن الندوي في ذات الموضع أيضًا أوصاف الأكابر العلماء الذين انتسبوا إلى علوم التزكية والتصوف والذين كان لهم الأثر البالغ في التعبير عنه فقال رحمه الله تعالى:

"هؤلاء الأكابر فرزوا اللبن من الماء والحقيقة من التصنع، حتى أن الشاه ولي الله الدهلوي كتب أن نسبة التصوف الحقيقي هي الكبريت الأحمر، أي أنها نعمة عظمى ولكن الرسوم التي لا أصل لها في الشريعة لا قيمة لها البتة، وهؤلاء الكبار كانوا يدعون دائمًا إلى الأخلاق الحسنة، والصفاء في المعاملات، والاهتمام بحقوق العباد، وكانوا يجعلونها شروطًا أساسية للإصلاح والتقرب إلى الله، وكتبهم مملوءة بهذا، وكان هذا موضوع محافلهم، والصالحون الذين

عاصرتهم وحضرت عندهم مرارًا وتعرفت على التصوف بهم، لم أجد فيهم التصوف والسلوك فقط، بل وجدت فيهم خلاصة الدين والشريعة، وأخلاقهم كانت نموذجًا للخلق النبوي الكريم، وكانت معاملتهم وأعمالهم وحياتهم كاملة في ميزان الشريعة، ووجدتهم يفرقون بين المقاصد والوسائل دومًا ووجدتهم مستغنين عن المصطلحات، مكبين على الحقائق نافرين عن الرسوم مخالفين للبدعة مخالفة شديدة، ووجدتهم مطيعين ومتبعين للسنة لا في العبادات فحسب، بل في المعاملات والعادات أيضًا، وكانوا مجتهدين في هذا الفن، وليسوا مقلدين، يعملون بالاختصار والاختيار، وبالحذف والترميم في ضوء البصيرة والفراسة وطول التجربة في هذا الفن، يعملون النسخة الطبية الروحانية للمرضى حسب أحوالهم الروحانية وأمراضهم المتنوعة، ويراعون في العلاج اختلاف الطبائع والمشاغل والأحوال، شأنهم شأن المجتهد الذي يحكم على الفن ولا يحكم عليه، ومقصودهم شفاء العليل لا أن يكون أسيرًا للرسوم، وجدت عندهم الصفاء في الخلق، والكد في المجاهدات، مع الاعتدال في الطبيعة، وضبط النفس والإيثار والانقياد، والإطاعة في كل شيء، والإخلاص، وابتغاء رضا الله وهو المقصود الأصلي من التصوف والأذكار والمجاهدات، وصحبة الشيخ والبيعة نفسها، فإن لم يحصل هذا المقصود فكل شيء مرفوض". انتهى كلام العلامة أبو الحسن الندوي.

وقد زاد المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي الأمر إيضاحًا بخصوص مناهج التصوف، والأساس في قبولها وردها وذلك بنقل رسالة السيد المجدد السرهندي رحمه الله تعالى في كتابه الشريعة والحقيقة ص ١٠٣ حيث قال عنه "وقد بين قدس سره في رسالة أخرى أن الشريعة كفيلة بجميع السعادات الدنيوية والأخروية وأن الطريقة والحقيقة خادمة للشريعة حيث يقول: إن الشريعة ثلاثة أجزاء: العلم والعمل والإخلاص، وما لم تتحقق هذه الأجزاء الثلاثة كلها لا تتحقق الشريعة، وبتحقيق الشريعة نحصل على رضاء الله سبحانه وتعالى - ورضاء الحق عز وجل هذا أعلى وأرفع وأعظم من جميع السعادات الدنيوية والأخروية (ورضوان من الله أكبر) فالشريعة هي الضامنة لجميع سعادات الدارين، فلم يبق إذن أي مطلوب يحتاج الحصول عليه سوى الشريعة، والطريقة والحقيقة التي امتاز بها الصوفية كلاهما تعملان لتكميل الجزء الثالث من الشريعة أي الإخلاص - إذن فالغرض من تحصيلها ما هو إلا تكميل الشريعة وليس أي أمر آخر على الإطلاق - وأما ما يحصل للصوفية من أحوال ومواجيد وعلوم ومعارف سوى الشريعة أثناء السلوك فهذه ليست بمقاصد، وإنما شأنها شأن الخيالات التي تربى بها أطفال الطريقة - وإنما ينبغي أن يتقدم عن كل هذه الأشياء إلى مقام الرضا". انتهى.

الدعوة للسُّنة والعمل بالسُّنة
طريق الولاية

ولا يقتضي الاعتراض على منهج التربية والتزكية في الإسلام، والمعروف بالتصوف في الاصطلاح عند الكثيرين من المخالفين له، أن يكون لنا نفس الحكم بالنسبة إليه...

بل إننا نعتقد أن أعظم علماء الإسلام ومجتهدي الأمة، كان ممن تخرج في مدارس التصوف والسلوك، على يد العلماء الربانيين في علوم الإخلاص والإحسان، وتصفية الباطن من الصفات المذمومة التي تمثل حاجزًا لصاحبها، من أن يكون محلاً لنظر الله تعالى إليه ورضاه عنه، وهي أعلى مقاصد التصوف عند عموم من انتسب إليه من الأئمة الربانيين، والتي تجعل من التصوف المُعبر عنه بعلوم التزكية كما وردت في القرآن، ودرجات الإحسان كما وردت في حديث جبريل عليه السلام.

هذا التصوف الذي يوافق الربانية ولا مخالفة فيه لكتاب الله تعالى أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم يمثل بابًا أساسيًا من أبواب الدين ، عن طريقه تخدم الشريعة ويتحصل به على مقاصد أحكامها، وخدمة الشريعة وتكميلها والحصول على مقاصد أوامرها وأحكامها، من أجل ما ينبغي أن يحرص عليه كل مؤمن، ولكنه ليس مقصورًا فقط على مدارس السلوك والتزكية...

بل إن وجد الباب الأرحب والسعي الأكمل الأرضى للتزكية، وللوصول إلى محبة الله تعالى ورضوانه، وتحصيل الإخلاص ودرجات الإحسان، فلا ضير في الانتقال إليه والتشبث به وتقديمه على سواه..

وقد من الله تعالى على أمة النبي صلى الله عليه وسلم بأنه جعله في عمل الدعوة والتبليغ، خاصة أنه تضمن في تعاليمه ووسائله عموم المقاصد التي حرص عليها الأئمة الربانيون، الحاملون لعبق التزكية ودرجات الإحسان، والناشرون لعلوم التصوف والسلوك عبر تاريخ الإسلام، وذلك لأن عمل الدعوة والتبليغ الذي فيه إحياء كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة، مع اليقين التام الصحيح على قدرة الله تعالى وحده، وتمام الإخلاص للوصول إلى محبته ورضوانه، هو الباب الأرحب المنوه إليه سابقًا والمفضي إلى كمال التربية والتزكية لعموم أمة النبي صلى الله عليه وسلم والجامع لكل مقاصد السلوك، التي أسسها ونشرها عظماء أئمة الدين المجتهدين، الذين أقاموا شريعة الإسلام وحرصوا على بيان حقائقها، ومع وجود عمل الدعوة والثمرات المتحصلة معه، فالالتفات إلى غيره من الوسائل، التي لم تبلغ درجته من أشغال التربية والتزكية، يكون خلاف الأولى إذا وصل الإنسان به إلى المقاصد المرجوة.

يقول الشيخ محمد الثاني الحسني في كتابه الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي "حياته ومنهجه في الدعوة" ص ٥١٧: (وخلال الكلام ذكر الشيخ محمد يوسف قصة فقال: لما كنت أدرس في عهد دراستي كتب النحو والصرف البدائية، قال لي والدي – رحمه الله – : يوسف، هل أدلك على طريق الولاية؟ وما كنت أعرف في ذلك الوقت ما هي الولاية، فقد كنت طالبًا صغيرًا، فقلت بدون تفكير: نعم يا أبي،، علمني ما هو الطريق للوصول إلى درجة الولاية.

وقال الشيخ محمد إلياس: اعلم أن العمل بالسُّنة في المكان الذي لا تُتبع فيه السُّنة، والعمل لترويج السُّنة بدون التقييد بالمكان والوقت هو الطريق للوصول إلى درجة الولاية" انتهى كلام الشيخ يوسف.

أقول: وقد طبَّق الشيخ محمد يوسف وصية والده الشيخ محمد إلياس فحرص طوال حياته على الالتزام بالسنة قولاً وفعلاً، وتأكيدها وتقريرها في عمل الدعوة والتبليغ يقول عنه الشيخ محمد الثاني في كتابه السابق ص ٥١٦: كان أساس دعوته وحركته يقوم على اتباع السنة، وفي حياته الشخصية كان حريصًا على اتباع السنة، والعمل بأسوة الرسول صلى الله عليه وسلم، بالمحبة الغامرة له، ويراعي ذلك في كل عمل عند الأكل والشرب، والقيام والقعود، والنوم واليقظة، وفي الحياة الفردية والاجتماعية، ويهتم بالأدعية المأثورة لكل وقت وحال، ويؤكد عليها، **يقول في التأكيد على اتباع السنة: هناك اضطراب في كل مكان، وصراع في كل طبقة، وتدهور في**

الأخلاق، وانحطاط في المعاملات، ولا علاج له إلا باتباع طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى مدى اتباعه يرتقي الإنسان وتحسن حاله.

ويقول في موضع آخر: إن الله تعالى وضع حل مشاكلنا الدنيوية والأخروية في اتباع طريقة محمد صلى الله عليه وسلم، وعلينا أن نجتهد لنقضي حياتنا حسب الطريقة النبوية). انتهى ما نقله الشيخ محمد الثاني عن الشيخ محمد يوسف.

يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في كتابه الشريعة والطريقة ص٩٩: "لقد سبق ذكر أن جبريل عليه السلام سأل الرسول صلى الله عليه وسلم: ما الإحسان؟ فقال صلى الله عليه وسلم: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه...الخ الحديث

والطريقة في الواقع هي اسم ثان للإحسان المذكور... أو أنها الطريقة التي يمكن بها الحصول على صفة "الإحسان" وهو الذي يقال له التصوف أو السلوك - أو سمه بما شئت - فإنما هي تعبيرات وألفاظ مختلفة والمقصود واحد.

إن جدي مولانا الشيخ محمد إسماعيل الكاندهلوي طلب من الإمام الرباني الكنكوهي قدس الله روحه أن يختلي به ليكلمه - وهناك قال له: إني كنت بايعت في الطريقة مولانا الشيخ محمد يعقوب الدهلوي وأخذت الوصايا والتعليمات من مولانا الشيخ مظفر حسين الكندهلوي وكانت تعليمات الشيخين المذكورين على الطريقة

النقشبندية - وبالعمل على تعليماتها وخلال ثمانية أيام فقط كانت لطائفي الستة تدور كالبكرة - ولكن من صغر سني كنت مغرما باتباع السنة المطهرة في جميع الشئون والمحافظة على الأذكار الواردة في الأحاديث في جميع الأحوال كالذهاب إلى الخلاء والخروج إلى السوق والدخول إلى المساجد والخروج وغير ذلك فكنت أهتم بهذه الأذكار كثيرًا جدًّا - لذلك لم يشغف قلبي بأعمال المشايخ كثيرًا فكنت أعمل المراقبة أحيانًا، ففي عشرة أيام مرة أو في أسبوعين مرة وهكذا - فهذا حال والآن وقد طرأ الضعف لكبر السن وأرغب أن تكرموني ببعض التعليمات في الطريق - فسأله الإمام الكنكوهي: هل الأعمال التي تحافظ عليها هذه حصلت لك فيها درجة الإحسان؟ فقال: نعم حاصلة فقال له الإمام الرباني حينئذ: إذن فلا حاجة لك إلى أية تعليمات لأن الاشتغال بأشغال الصوفية بعد الحصول على مرتبة الإحسان مثاله كمن يدرس كتاب "كريما"[١] بعد أن يكون قد فرغ من دراسة كتاب "كلستان بوستان"[٢] .

وهذا ظاهر أن هذا فيه تضييع محض للوقت - لذا فإن اشتغالك بأشغال المشايخ ما هو إلا تضييع للوقت ومعصية "كذا نقل في أرواح ثلاثة" بالأردوية ص٢٩٩ وقد سمعت هذه القصة من أكابري أيضًا وسمعت فيها أن الإمام الكنكوهي قال: إن مثله كمثل رجل

---

(١) من الكتب التي تدرس في الابتدائية للغة الفارسية.

(٢) من كتب الأدب الكبيرة في اللغة الفارسية.

حافظ للقرآن ثم يقول إني لم أقرأ القاعدة البغدادية فأقرئوني إياها. انتهى كلام الشيخ محمد زكريا

ونقل عن الإمام الكنكوهي قدس الله روحه في مقام آخر أنه قال "إن قوة الرسول صلى الله عليه وسلم الروحانية كانت لدرجة أن أعتى كافر كان يتحصل على مرتبة الإحسان بعد إقراره بالشهادتين مباشرة – ونظير ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم كيف نتخلى وكيف نتعرى أمام الله – وهذه هي النهاية العظمى، وكانوا لا يحتاجون إلى أنواع المجاهدات والرياضات وإنما يتحصلون على هذه القوة الروحانية بالفيض النبوي الشريف صلى الله عليه وسلم ولكنها كانت أقل درجة من الرسول ﷺ وهكذا كانت موجودة في التابعين رحمهم الله، ولكن أقل درجة من الصحابة رضي الله عنهم، وثم في اتباع التابعين كانت أيضًا موجودة هذه القوة إلا أنها كانت قد ضعفت جدًا – ولجبر هذا النقص أوجد المشايخ السلف المجاهدات والرياضات فمضت إلى مدة من الزمن كوسائل غير مقصودة بذاتها، ولكن كلما ابتعد الزمن عن خير القرون، كلما صار يدخل إليها شأن المقصودية، ثم بين حين وآخر كانت تضاف إليها أشياء أخرى أيضًا حسب الضرورة، فنتج من ذلك كله أن دخلت إلى الدين بدعات علمية وعملية واعتقادية كثيرة – وقد اجتهد الصوفية المحققون في إصلاح هذه المفاسد، ولكن نتج عن ذلك أن قلت البدعات جدًا فقط ولكنها لم تنته كليًّا" انتهى كلام الشيخ محمد زكريا.

فانظر إلى قول مولانا الشيخ محمد إسماعيل الكاندهلوي رحمه الله إلى الإمام الرباني الكنكوهي نور الله قبره: "ولكني من صغر سني كنت مغرمًا باتباع السنة المطهرة في جميع الشئون والمحافظة على الأذكار الواردة في الأحاديث في جميع الأحوال، كالذهاب إلى الخلاء والخروج إلى السوق والدخول إلى المساجد والخروج وغير ذلك، فكنت أهتم بهذه الأذكار كثيرًا جدًا لذلك لم يشغف قلبي بأعمال المشايخ كثيرًا".

أقول: وهل اتباع السنة المطهرة في جميع الشئون، أو المحافظة على الأذكار الواردة في الأحاديث في جميع الأحوال، كالذهاب إلى الخلاء، والخروج إلى السوق، والدخول إلى المساجد، والخروج وغير ذلك، إلا ترجمة صادقة لعمل الدعوة والتبليغ، وبيانًا شافيًا للمنهاج العملي لأهل الدعوة أثناء قيامهم بدعوتهم، وخروجهم في سبيل الله تعالى، حيث أنهم يحرصون في جميع أوقاتهم وأشغالهم على مطابقة أعمالهم لسنة النبي ﷺ في كل أمورهم، وعبارتهم مشهورة في ذلك عند طعامهم وشرابهم ونومهم ويقظتهم ودخولهم وخروجهم، فهم يرددون عند ذلك دائمًا نريد أن نحول العادات إلى عبادات، وذلك بموافقة سنة الحبيب ﷺ بل إنهم وضعوا أول صفة من الصفات الستة، التي أعز الله بها صحابة النبي ﷺ، والتي يتدارسونها

ويحرصون على تحصيلها في أنفسهم ونشرها وفي عموم أمة النبي ﷺ، صفة حسن اتباع النبي ﷺ في الصورة والسيرة والسريرة، ظاهرًا وباطنًا بإحياء مقاصد النبوة والرسالة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ: ٢٨).

فالنبي ﷺ بشير بالجنة وجلب النفع كل النفع لكل أحد بإدخاله إليها، ونذير بالنار، ودفع الضرر كل الضرر عن كل أحد بإبعاده عنها...

وقد أجملوا حسن اتباعهم للنبي ﷺ في ثلاثة أمور: تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر وقد ترجموا ذلك في تعظيمهم وعملهم بالآية الكريمة ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (التوبة: ١٥٧).

فكان نتيجة هذا الحرص على حياة النبوة، علما وعملاً ودعوة أن رزقهم الله تعالى حقيقة محبته ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٣١) وتحصلوا على درجات الإيمان واليقين والإحسان، حتى وجدنا أفجر الناس وأعتى العتاة، إذا ما صحبهم لأيام قليلة، تتحول حياته إلى الطاعة والعرفان، ويُرزق ببركة الدعوة

وأعمالها الهداية والاستقامة، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩) فتتنور نفسه وتحيا روحه، وينتقل معه نور التزكية هذا إلى الآخرين ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

فالتبليغ شيئان: الأول: قيام الأمة عامة على الحياة الإسلامية المتمثلة في سنة النبي صلى الله عليه وسلم..

الثاني: إن لم نستطع فعامة الدعاة يجتهدون لدخول الناس في هذه الحياة إذا كانت أعمال الإنسان مطابقة لأوامر الله، فالنظام للكون كله يستخدم لصالح الإنسان، وإن كانت أعمال الإنسان مخالفة لأوامر الله عز وجل، يكون النظام والكون كله مخالفاً للإنسان، فأصل القيام الآن لمطابقة أعمالنا لأوامر الله تعالى ولنحيا الحياة الإسلامية الصحيحة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم.

لابد للأمة أن تكون سفيرة لله تعالى، وأن يكون معها جهد الدعوة إلى الله تعالى ولابد للحياة الإسلامية المتمثلة في سنة النبي صلى الله عليه وسلم أن تكون فينا حتى ندعو الناس لحياتنا، الصحابة رضي الله عنهم قالوا للناس "كونوا مثلنا" لما كانت حياتهم على وفق الحياة النبوية.

فكيف السبيل معنا إذا نحن اخترنا حياة غير المسلمين، ولم نعد قدوة للناس لفقد حياة الإسلام فينا، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم ظاهرًا وباطنًا، صورة وسيرة وسريرة فقيام الأمة الآن بشيئين:

أولاً: تغيير حياة الأمة كاملة لحياة النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: دعوة الناس إلى هذه الحياة.

الرسول ﷺ أولا في الجهد للدعوة وللدلالة على ربه، وتعظيمه وتعبيد الخلق له، وكل إنسان يأتي للإسلام عن طريق الدعوة، وعندما يدخل في الإسلام أول عمل يكون له هو الدعوة لهذا الخالق العظيم وإقامة نظام العبودية الكاملة له.

إذا جلس الإنسان للصلاة وتلاوة القرآن هذا عمل طيب، ولكن لابد من الدعوة إلى الله تعالى ، لأنه بطريق الدعوة يدخل الناس في الدين الكامل، مع تمام الخضوع والخشوع والطاعة لله التي هي حقيقة العبودية، لذلك لابد أن يكون أول عمل لإحياء الدين هو الدعوة إلى الله تعالى وتعظيمه، فإذا عظمنا الآمر عظمت فينا أوامره.

أولاً الدعوة إلى الدين والإيمان، ثم العبودية ثم نصرة الله تعالى ولكننا الآن نطلب الأخير، نطلب نصرة الله مع فقد الدعوة والإيمان والعبودية.

بغياب الدعوة والإيمان والعبودية لا تكون نصرة الله لنا، نحن رأينا رفع النصرة ومعية الله تعالى، ولم نرى التقصير في الدعوة والإيمان والعبودية، لذلك دخلنا في التيه، وفي دروب الحيرة لغير المسلمين التي حصّلوا بها الدنيا وفقدوا بها الآخرة...

أما بنظام الأنبياء وبسنن الله تعالى في النصرة والتمكين، فإن أمة النبي صلى الله عليه وسلم تتحصل على الحياة الطيبة، والنصرة في الدنيا وموعود الله في الآخرة.

أقول: وانظر إلى سؤال الإمام الكنكوهي لمولانا الشيخ محمد إسماعيل الكاندهلوي هل الأعمال التي تحافظ عليها هذه حصلت لك فيها درجة الإحسان؟ وهي الأعمال التي يلتزم فيها باتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم في الطعام والشراب والمنام وجميع الأحوال. فقال: نعم حاصلة فقال له الإمام الرباني حينئذ: إذن فلا حاجة لك إلى أية تعليمات لأن الاشتغال بأشغال الصوفية بعد الحصول على مرتبة الإحسان مثاله كمن يدرس كتاب "كريمًا" بعد أن يكون قد فرغ من دراسة كتاب "كلستان بوستان" وهذا ظاهر أن هذا فيه تضييعًا محضًا للوقت لذا فإن اشتغالك بأشغال المشايخ ما هو إلا تضييع للوقت ومعصية "كذا نقل في أرواح ثلاثة بالأردوية ص٢٩٩ وقد سمعت هذه القصة من أكابري أيضًا وسمعت فيها أن الإمام الكنكوهي قال: إن مثله كمثل رجل حافظ للقرآن ثم يقول إني لم أقرأ القاعدة البغدادية فأقرئوني إياها" انتهى كلام العلامة محمد زكريا.

عمل الدعوة هو الباعث للترقي في درجات الإحسان

قد من الله تعالى في هذه الأزمنة المتأخرة على أمة النبي ﷺ بجوهرة القرن الأول، وهو عمل الدعوة إلى الله تعالى والخروج في سبيله الذي هو سبب لإنشاء اليقين، ودرجات الإيمان والإحسان...

قال الشيخ يوسف: " أي شيء تريد أن يأتي فيك فادعو إليه الآخرين".

كل ما نريد من أوامر الله عز وجل نحتاج إلى تركيزه في قلوبنا، وهذا لا يكون إلا بالدعوة إليه، فندعو الناس إلى اتباع النبي ﷺ فتأتي فينا حقيقة السُّنة وحياة النبي ﷺ ومقاصد الرسالة، وندعو الناس إلى الصلاة فتأتي فينا حقيقة الصلاة والمحافظة عليها وتعظيمها والخشوع والخضوع فيها، وندعو الناس إلى اليقين على قدرة الله تعالى وعظمته، فنتحصل على هذا اليقين في أنفسنا وعلى تعظيمه في قلوبنا.

وقد كان هذا أول المأمورات في أحكام شريعتنا، المنزلة على النبي ﷺ حيث قال الله عز وجل في سورة المدثر ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣)﴾ (المدثر: ٣) وهو من الخطاب المتعدي للنبي ﷺ ومن بعده وسائر أمته مخاطبون بذات الأمر، وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم ممتثلاً للأمر يعظم في أهل مكة معبوده وسيده وخالقه ومولاه.

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾(الصافات: ٣٦).

الإيمان بالكلمة يأتي بالإقرار لها والإذعان لمقتضاها، والتلفظ والشهادة بها...

أما حقيقتها فتأتي في الناس بجهد الكلمة والدعوة إليها واليقين بها إذا حققّنا لا إله إلا الله وجب علينا الامتثال لجميع أوامر الله وأولها الصلاة.

كل الأنبياء أتوا بلا إله إلا الله والمقصود منها نفي المخلوق وإثبات الخالق ...

وهذه الأمة هي خير الأمم ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ أي لنفع الناس، فنحن نتفكر كيف نتحصل من خروجنا في سبيل الله للدعوة إليه على الدين الكامل، وكيف يأتي هذا الدين الكامل في حياتنا وفي أهلينا وأقوامنا والناس كافة وفي العالم أجمع...

قال ربعي بن عامر رضي الله عنه، وهو يبين أمام رستم ما الذي أخرجهم إليهم حيث قال: "**إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء" من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة**".

فنحن لا نعظم أي شيء إلا الله تعالى، ولا نقارن أي شيء مع الله تعالى، فأولا نكبر الله تعالى ، الأرض كبيرة ولكن السماء أكبر منها، السماوات كبيرة والعرش أكبر منها، والله تعالى أكبر من كل ذلك نحن حتى ننفي المخلوق الكبير نقول هذا أكبر منه، وهذا أكبر منه، وكذلك نقول قبل أن يصل إلى وظيفته الكبيرة كان طالبا يضرب بالعصا، وقبل ذلك كان في بطن أمه، وقبل ذلك لم يكن شيئاً.

المخلوق لا ينفع شيئًا ولا يضر، وإرادة الإنسان طلب الشيء لا وجود الشيء، وإرادة الله تعالى وجود الشيء وتكوينه بعد أن لم يكن ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (النحل: ٤٠).

الأنبياء كانوا يعلمون الناس ذلك، وكانوا يقررون هذا للناس، لقد كان جهد الأنبياء والدعوة يتوجه إلى قلوب الناس، أن تكبر الخالق لا المخلوق، وأن تُعظم الخالق وحده لا المخلوق...

الناس في كل وقت وعبر كل زمان، كانوا يسمعون تكبير المخلوق ولا يسمعون تكبير الخالق، فبعث الله تعالى أنبياءه ليعظموه ويكبروه في آذان المخلوق.﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (الإسراء: ١١١).

هذا الدين وهذا الإيمان يأتي في حياة الناس بجهد الدعوة، والدلالة على الخالق، وتعظيمه على نهج النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا صار نقص في الدعوة وفي هذا الجهد يأتي النقص في الدين، وإذا بذل الإنسان النفس والمال، أو اجتهد للدلالة على الخالق والتوجه إليه والتوكل عليه، وتعظيمه وحده مع كمال الاتباع لنبيه. المصطفى ورسوله المجتبى صلى الله عليه وسلم ، فالله تعالى يرزقه تمام اليقين والإيمان، أو يمن عليه بدرجات الإحسان والعرفان، دون المرور بالوسائل أو الوسائط أو أي أشغال أخرى، لأنه بهذا الوصف لا يكون بحاجة إليها...

وهذا كما قال الإمام الكنكوهي: "إن مثله كمثل رجل حافظ للقرآن ثم يقول إني لم أقرأ القاعدة البغدادية فأقرئوني إياها".

فجهد الدعوة يمثل الأساس الأقوى والأعلى للحصول على درجات الإيمان واليقين، والترقي في درجات التزكية والإحسان، فالالتفات إلى غيره ممن لم يبلغ رتبته أو درجته من أي وسائل ذاتية أخرى، وذلك بالعكوف على تحصيلها والاشتغال بها إنما يمثل زهدًا في الأكمل والأولى، لتحصيل حقائق الإيمان والعرفان، **والتي يحققها بكل أريحية وإتقان جهد الدعوة، وذلك بالدلالة على الخالق وتعظيم صفات الرحمن...**

وهذا معلوم مشاهد لكل من كانت له أدنى مشاركة في هذا الجهد المبارك، بحيث لا يحتاج إثبات ذلك إلى برهان أو إشارة ببنان ...

الحقائق لا تُدفع بالظنون والشكوك

بعد أن فرغنا من المقدمة السابقة عن منهج التصوف وعلوم التربية[1] والتزكية، والتحقيقات القيمة التي سبقت لهؤلاء العلماء، نشرع فيما نحن بصدده من الجواب على الشبهة السابقة التي أطلقها البعض على عمل الدعوة فنقول: إن أئمة الأصول قد وضعوا لنا قاعدة جليلة، في التبين والتحرز وحفظ الحقوق، تعيننا على تأصيل الحقائق، وتدفع عنا أوهام الشكوك، فكان مما أسسوه في الأشباه والنظائر وقواعد الفقه، قاعدة عظيمة هي " **اليقين لا يزول بالشك**" والتي أكدوا بها أن الأصل الثابت أن الحقائق لا تدفع بالظنون والشكوك، وهذه القاعدة تجيب على كل الإدعاءات السابقة على عمل التبليغ، فمراكز أهل الدعوة ومساجدهم منتشرة في بقاع المعمورة، يراها الكافة من أهل الإسلام، لا فيها عبادة قبور ولا ضرائح، ولا عكوف على أهلها، ولا يتبرك بها، ولا مرابطة حولها...

وهؤلاء اللائمون عليهم، يملئون الدنيا ضجيجًا، بالقصص والحكايات المدسوسة عليهم في ذلك، ولا يتحاشون أن يسقطوا قواعد الاستدلال، وأصول البحث العلمي للوصول إلى أغراضهم في ذلك، من التشويش عليهم والتشنيع بهم...

---

(١) التربية: إنشاء الشيء بعد الشيء حالا بعد حال إلى حد الكمال.

فبدل من أن يكون الاحتكام إلى مصادر التشريع في إثبات الأمر أو نفيه، نجدهم يستدلون بالحكايات والنقول غير الموثقة عن الشيخ فلان والأخ فلان... والأصل في الجرح أن يكون مفصلا مفسرا، ليعلم هل هو مما يجرح به أم لا ...

على أننا ننقل لمن كان له قلب صادق في طلب الحق، أو ألقى السمع وهو شهيد، قول الشيخ إنعام الحسن رحمه الله تعالى، وهو مسئول التبليغ والدعوة في العالم في وقته، عندما سئل عن العلاقة بين عمل التبليغ والطرق الصوفية وذلك جوابا على رسالة الشيخ سعد الحصين، وقد كان جوابه بيانا وتأصيلا وتفصيلا له ولغيره، ممن له نفس التساؤلات عن عمل الدعوة فقال رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الشيخ سعد الدين الحصين المحترم وفقنا الله وإياه لما يحبه ويرضاه بفضله وكرمه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد ... فقد تلقيت خطابكم الكريم المؤرخ ٩/٩/١٤٠٤هـ بالغ الشكر والتقدير المتضمن على عدة استفسارات وتساؤلات. وهذا يدل على غيرتكم وحميتكم الدينية ، ونريد أن نجيب عنها بإيجاز لتكونوا على بصيرة من الأمر.

أخي الكريم إن هذه الدعوة ليست إلا للعودة بالأمة إلى كتاب الله وسنة رسوله وطريقة السلف الصالح وهو الصراط المستقيم .

وقد نفع الله بهذه الدعوة والحمد لله خلائق لا يحصون في جميع أنحاء العالم، وعادوا من الشرك والضلال والبدع والخرافات إلى عقيدة التوحيد النقية، وتاب كثيرٌ منهم من الإلحاد والزندقة ومن شرب الخمور وتعاطي الربا وارتكاب شتّى المعاصي، ورجعوا إلى المساجد يعبدون ربهم وينيبون إليه متمسكين بهدي المصطفى ملتزمين بسنته الطاهرة كما لا يخفى عليكم .

كذلك لا ننكر أن كثيرًا من الناس والشباب المنحرفين تابوا من المعاصي وعادوا إلى الصراط المستقيم، لكن بقي فيهم بعض آثار الانحرافات السابقة وهم بحاجة إلى تثقيف ووعي إسلامي أعمق، فهذه الانحرافات لا ينبغي أن تنسب إلى الدعوة ، فإننا أحيانًا نضطر لغض النظر عنها للظروف القاهرة، بل يحتاج هذا إلى المشاركة من أمثالكم في هذا العمل الجليل لتثقيفهم وتربيتهم.

أما أصول الدعوة فهي معروفة لديكم ولدى الجميع ولا خلاف فيها بين أحد من الناس ، وهي التي نحرص عليها في هذا العمل وندعوا إليها كافة الناس عربًا وعجمًا، أما المسائل الدقيقة العلمية فعادة نحيلها إلى العلماء المختصين ونقول لهم: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنبياء: ٧) هذه حقيقة معروفة بين العرب والعجم لا خفاء فيها ، وكل ذلك حرصًا على جمع شمل الأمة .

ولكن بسبب المودة والمحبة الخاصة التي تربط بيننا وبينكم، نود أن نشرح لكم بشيء من التفصيل لما ذكرتموه في رسالتكم الموقرة .

الطرق الصوفية والبيعة ليست قطعًا من أصول هذه الدعوة كما هو مقرر ومعلوم، ولا ندعوا الناس أبدًا لها صراحة ولا إشارة ولا عربًا ولا عجمًا، ولكننا نقر منها ما يوافق الربانية التي عبر عنها القرآن الكريم (بالتزكية) والحديث الشريف (بالإحسان)، وما يخالف ذلك فإننا نعتبره بدعة وضلالة ولا علاقة له بالإسلام ولا علاقة لنا به وليس لنا وجهان والحمد لله في ذلك، وإنما كما هو معلوم أن البيعة في الطرق الصوفية رائجة ومنتشرة في شبه القارة الهندية،الواقع أننا إن لم نبايع هؤلاء الذين يصرون علينا بذلك، فإنهم حتمًا سيبايعون غيرنا ويقعون في حبائل المبتدعة والمنحرفين من المتصوفة والزنادقة، وعندما نبايع فإننا لا نبايع إلا على طريقة رسول الله كما ورد في الحديث الصحيح في البخاري من "كتاب الإيمان" أن عبادة بن الصامت (وهو أحد النقباء ليلة العقبة) قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصابة من أصحابه: "بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا.. إلى آخر الحديث" وكما ورد عن جرير بن عبد الله البجلي أنه قال: "بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم" وغير ذلك من الروايات الصحيحة الصريحة الكثيرة شُحنت بها كتب السنة،

فهذه البيعة بيعة التوبة[1]، وهي ليست من الشرك ولا من البدع بل هي مقيدة بسُنّة رسول الله، أما من خالف كتاب الله وسُنّة رسوله من عقيدة أو عمل أو أقوال أوكشف أو كرامة فإننا نرمي به عرض الحائط، ولا نبالي به، ونبرأ إلى الله منه .

ومن يقول أو يعتقد بشيء يخالف كتاب الله وسنة رسوله فإنه لا يساوي عندنا شيئًا، بل إننا نبغضه في الله كائنًا من كان كبيرًا أو صغيرًا، هذا ما ندين الله به ونسأله سبحانه أن يحشرنا عليه آمين .

وأما ما ذكرتموه من بعض الإخوان من الجماعة أنه لا يتزوج أحدهم أو يبني بيتًا أو يغير وظيفته إلا بعد موافقة الأمير، فهذا وجهه: أن أحد الذين تكون له علاقة قديمة بالدعوة وبي شخصيًّا يستشيرني في أمر من أموره فأعطيه رأيي الشخصي بأمانة" وصدق" على قاعدة "المستشار مؤتمن"، وأنتم على علم أن جميع العاملين والمشتغلين بالدعوة غير ملزمين في هذه الأمور بالرجوع إلى أي أمير أو الالتزام برأيه، وإنما كل أحد حر في تصرفاته، فقط الذي

---

(١) قال الشيخ أبو الحسن الندوي: كانت البيعة ولا تزال عند الشيوخ المربين الراسخين في العقيدة الصحيحة والعلم بالكتاب والسنة – توبة من الكفر والشرك والمعاصي والبدع ، وعقد عزيمة على اتباع الكتاب والسنة والفرائض الدينية ، والأذكار المأثورة ، وفي ذلك تشحيذ للعزم وتجديد للإيمان والربط بالله والرسول، وقد نفع الله بذلك خلقًا كثيرًا لا يعد ولا يحصى، لم يكن لهم طريق ميسر لتجديد الإيمان، والربط الوثيق بالدين ، خصوصًا في البلاد العجمية والبيئات الموبوءة، إلا هذا الطريق .

ندعوا إليه كل واحد: أن يلتزم في جميع شؤون حياته بأمر الله وسنة رسوله فالفلاح والنجاح كله في ذلك .

أما لماذا نخص العرب بكتاب "رياض الصالحين" فالأمر واضح، وهو أن هذا الكتاب نافع وجيد تلقته الأمة بالقبول، ولما ذهبت جماعات الدعوة إلى البلدان العربية لم تكن كتب الفضائل قد ترجمت للغة العربية وإلى الآن لم يترجم إلا بعضها، فاخترنا هذا الكتاب لحلقة التعليم لحصول المقصود منه أيضًا، واستمر الأمر على ذلك .

أما ما يتعلق بكتاب "تبليغي نصاب" المشتمل على كتب الفضائل المختلفة وما أثير حول هذا الكتاب فنجيب عنها بإيجاز: هذه الكتب ألفت باللغة الأردية منذ زمان، ولا شك قد تساهل المؤلف في ذكر بعض الروايات الضعيفة في الفضائل، ولا شك قد تساهل المؤلف في ذكرها، ويشير في الآخر إلى درجة الحديث من صحة وحسن وضعف، وقد ترجم إلى اللغة العربية بعض كتب الفضائل ربما اطلعتم عليها.

وكذلك "حياة الصحابة" للعلامة المحدث الداعية الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي أيضًا مأخوذة مادته من كتب الصحاح الستة وغيرها من كتب السنة والسير والتاريخ، ثم يذكر المؤلف مصدره حسب عادة المحدثين، وأريد هنا أن ألفت نظركم الكريم إلى بعض مؤلفات العلماء الأعلام من السلف والخلف الذين ألفوا في الفضائل والسيرة، وكيف أنهم مع علو مرتبتهم في الحديث وتشددهم المعروف في هذه القضية نجد أنهم قد تساهلوا أيضًا في مؤلفاتهم هذه بالذات

وذكروا فيها أحاديث ضعيفة كثيرة كما هو معلوم، مثل ذلك: كتاب الأدب المفرد للبخاري إمام المحدثين، وكتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل، وكتاب الزهد والرقائق للإمام عبد الله بن المبارك، وصفوة الصفوة للإمام ابن الجوزي، وكتاب الكبائر للإمام الحافظ الذهبي، والبداية والنهاية للحافظ ابن كثير، والوابل الصيب وزاد المعاد للحافظ ابن القيم رحمهم الله .

ومرة أخرى إنه لا ينبغي أن نستدل بعمل فرد اشتغل بهذه الدعوة على أن فعله الشخصي جزء من أصول الدعوة، لأنها تدعو جميع الناس إلى الأصول المتفق عليها، وهي بجملتها وتفصيلها معلومة لديكم وهم يأتون إلينا مع انحرافاتهم السابقة، ولا شك هذا يحتاج إلى تربية وجهد بالغ بحكمةٍ وسعة صدرٍ وإشراف أمثالكم من الأفاضل أهل العلم والغيرة والحمية الدينية .

ومع هذا فإننا نعتبر أنفسنا والله مقصرين جدًّا، ندعوا الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد، ونحن نرجو من فضيلتكم كما عهدنا منكم النصح لهذه الدعوة والمشاركة فيها، لأنكم أهلٌ لها والشيء من معدنه لا يستغرب .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، ونسأل الله جميعًا التوفيق والسداد، وأن يهدينا دائمًا للحق والصواب وجميع عامة المسلمين على كتاب الله وسنة رسول الله، وأن يلهمنا مراشد أمورنا ويعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وحسبنا الله ونعم المولى ونعم النصير، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته **أخوكم في الله محمد إنعام الحسن الكاندهلوي -دلهي- الهند** .

أقول: أجاب الشيخ إنعام الحسن رحمه الله بهذه العبارات القوية الواضحة السابقة، تأكيدًا على أن عمل الدعوة والتبليغ ليس طريقة صوفية، وشيخنا أعمال مسجد النبي صلى الله عليه وسلم المفضية للهداية، وهي الدعوة إلى الله والتعليم والتعلم والعبادات والذكر والخدمة...

وإن من المقرر المعلوم في أصول أهل الدعوة والتبليغ أنها قامت على مصدرين أساسيين هما الكتاب والسنة، فالاحتكام إلى كتاب الله تعالى وإحياء كل ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خُلقية، هما الهدفان الرئيسيان في كل صغيرة وكبيرة في هذه الدعوة المباركة، وهما الشغل الشاغل لكل جهودهم في كل أنحاء المعمورة، وعبر أي زمان ومكان، لا ترى أحدًا منهم إلا وتتمثل أمامك آيات الله تعالى، واليقين الغيبي على موعودها ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣)** ﴾ (الفرقان) إذا أغلقت عينك وتفكرت من على ساحة الإسلام الآن الذي يتخلق بأخلاق هذه الآية، ثم فتحت عينيك لتنظر، سوف ترى أنهم هم في الغالب المتصفون بها، فهم أصحاب القرآن المحبون له والمعظمون لأحكامه وحدوده، الملزمون لأنفسهم اتباع أوامره والانتهاء عما نهي عنه، قاموا للقرآن ولسنة النبي ﷺ ينشرونها في الناس، ويحيون في أنفسهم وفي أمة النبي ﷺ نور كلام الله ونور كلام رسوله، على عبارتهم المشهورة في ذلك، ليس همهم متى يختمون السورة من

القرآن، أو كيف يتلفظون بحروفها مع أهمية ذلك، بل كيف يتحصلون على نورها ويمتثلون أوامرها، فهم لا يقيمون حروف القرآن ويسقطون حدوده، بل يقيمون حروفه وحدوده جميعًا، يقرأون ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ (الزمر: ٣٦) فيحققونها في أنفسهم، ويقومون يدعون الناس للاستغناء بالله وحده، وألا يعتمدوا على الأسباب وحدها دون مسببها سبحانه وتعالى...

يدعون أمة النبي ﷺ إلى تناول الأسباب بجوارحهم على أن يكون اعتماد قلوبهم وتوكلهم على الله تعالى وحده، فلا نضيف يقيننا إلى سبب غير الله تعالى، ولا نتعلق بالأسباب بل برب الأسباب سبحانه، فالأسباب ليست باطلا محضا فننفيها، وليس حقا محضا فننغمس فيها، بل وراءها مسببها سبحانه وتعالى، إن شاء أمضاها وإن شاء منعها، فالنار لا تحرق إلا بأمر الله عز وجل، والسكين لا تقطع إلا بإذن الله تعالى، وجعلوا لأنفسهم بالصفة الأولى من صفات الصحابة، وهي اليقين على الكلمة الطيبة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" سبيلا لأن نطرح من قلوبنا الاعتماد على الأسباب والمشاهدات والمحسوسات، أنها فاعلة وجاعلة، أو أنها تنفع وتضر بذاتها استقلالا دون أمر الله تعالى فيها، ونثبت في قلوبنا التوكل الصحيح على الله تعالى وحده، فلا خالق ولا رازق ولا محيي ولا مميت غيره، لذلك لا كافي ولا وكيل ولا معين سواه، فلا نسأل غيره ولا نستعين إلا به ولا نعتمد إلا عليه، ولا ندعو إلا إياه.

وعندما تقرأ ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠) نجدها فيهم، فهم خير الناس للناس، يأمرون بالمعروف بالمعروف وينهون عن المنكر بغير منكر، فهم لا يغسلون البول بالبول ولا النجاسة بالنجاسة، بل يُطهرون ويتطهرون وإذا قرأت ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٤) تجد أنهم من هذه الأمة، أمة الفلاح والتزكية التي قامت في الأمة للدعوة إلى الخير، ونشر الخير وإحياء الخير، حتى سماهم الناس "أهل الخير والإيمان".

وإذا قرأت ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾(التوبة: ٢٤).

رأيت أنهم بعض الذين وفقهم الله تعالى للخروج من وعيد هذه الآية، حيث قدموا في دعوتهم إلى الله تعالى محبة الله تعالى ورسوله ﷺ على محبة الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال المكتسبة والتجارة الرائجة والمساكن المرضية، وتركوا العائلات والأزواج والعشيرة، والأموال والتجارات والمساكن الفاخرات، مع الترتيب الصحيح لكل ذلك بدون أي خلل، سعيا لإحياء دين الله تعالى، في أنفسهم وفي عموم أمة الحبيب صلى الله عليه وسلم وسائر

البشرية و الإنسانية، والدعوة إلى الله تعالى وإلى سنة حبيبه صلى الله عليه وسلم في مشارق الأرض ومغاربها ، الأيام والشهور العديدة لا يكلُّون ولا يملون مجتهدين بأنفسهم وأموالهم متغربين في الدنيا بأسرها، يتفقدون وينصحون لأهل الإسلام ولأمة النبي صلى الله عليه وسلم العدنان، أين ما كانوا، وكم يعد العاد من الآيات، وكم يتلو من العظات النيرات، التي هم أهلها والقائمون للعمل بها ونشرها في الأمة، ونكتفي في الدلالة على صفتهم في السابق، أمارة وعلامة واضحة لمن أراد أن يتبع وصفهم في اللاحق، فعملهم بالقرآن ومحبته وتعظيمه، وتخلقهم بآياته، جعل وصفهم لا ينحصر فيها، بل إن الآيات التي غلب عليهم الاتصاف بها كثيرة معلومة، مشاهدة بينة واضحة منظورة.

أما الأحاديث فحدث ولا حرج، فكم من السنة طبقوها وعملوا بها ظاهرا وباطنا، بل حملوا لواء السبق بإحيائها، فمنها ظاهر السنة المشرفة حيث انتشرت معهم العمائم ولبس السنة، وأطلقت اللحى تشبهًا بالنبي صلى الله عليه وسلم...

أما باطن السنة، ونيات ومقاصد النبوة، فهم المشمرون لإحيائها والعمل الدائب بالليل والنهار لتطبيقها، من النصح والشفقة على الأمة، والرفق واللين معها، ومحبة هدايتها ونجاتها، وقد لبوا نداء السنة مشمرين ومطبقين، فسمعوا حديث النبي صلى الله عليه وسلم "**بلغوا عني ولو آية**"(١). فقاموا للبلاغ عن السنة المشرفة حتى صار البلاغ شعارًا لهم، وسمعوا حديث النبي صلى الله عليه وسلم "**ليبلغ الشاهد منكم الغائب**"(٢) فقاموا للأداء بوظيفة السنة ومسئولية الرسالة للناس كافة وللعالمين عامة.

وقد بين أهل التبليغ أصول دعوتهم للعالمين قولا وعملا، وأكدوا أنها تتمثل في التمسك بالكتاب والسنة والدعوة لأحكامهما، وذلك بالإعلان الذي ينوهون به في كل الدنيا، إفصاحًا عن ماهية دعوتهم، وحقيقة جهدهم، وشرعية حركتهم، حيث يقولون في أي اجتماع لهم في ربوع الأرض معلمين ومعرفين بأنفسهم، "**بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم نعلم جميعًا**

---

(١) رواه الترمذي كتاب العلم باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل، ورواه الإمام أحمد .

(٢) رواه البخاري ج١ كتاب العلم باب "ليبلغ العلم الشاهد الغائب"، ومسلم كتاب القسامة ج٢ باب "تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال"، ورواه ابن ماجه ج١ حديث ٢٣٣، ورواه الإمام أحمد في المسند ج٥ ص٤٠، ورواه الترمذي في سننه ج٢ ص٩٣.

أن فلاحنا ونجاحنا في الدنيا والآخرة هو فقط في الامتثال لأمر الله تعالى وعلى هدي النبي صلى الله عليه وسلم إنشاء الله بعد أذكار الصلاة وركعتي السنة نصبر أنفسنا لسماع كلام الخير والإيمان"

فهم يقررون بهذا الإعلان أن أصول دعوتهم مقيدة في مصادرها ومرجعيتها بالوحيين كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يقرون في دعوتهم إلا ما وافق الكتاب والسنة من أي جهة كانت، كما أنهم لا يدعون في جهدهم وحركتهم إلا إلى الوحيين الكتاب والسنة، وجعلوا ذلك عنوانا في الإعلان المعبر عنهم، وربطوا آذان السامعين بالحقيقة التي يحيون بها وهي أن فلاحنا ونجاحنا، وفلاح ونجاح كل البشرية والإنسانية، هو فقط في الامتثال لأمر الله تعالى وطاعته، واتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم بإحياء كل ما جاء به من سنته المشرفة.

وقد عبر عن هذا فضيلة الشيخ إنعام الحسن مسئول التبليغ والدعوة في العالم في وقته في النص السابق عنه وذلك بقوله: **"الطرق الصوفية والبيعة ليست قطعا من أصول هذه الدعوة كما هو مقرر" ومعلوم، ولا ندعو الناس أبدًا لها صراحة ولا إشارة ولا عربا ولا عجما ولكننا نقر منها ما يوافق الربانية التي عبر عنها القرآن الكريم (بالتزكية) والحديث الشريف (بالإحسان) وما يخالف ذلك فإننا نعتبره بدعة وضلالة ولا علاقة له بالإسلام ولا علاقة لنا به وليس لنا وجهان والحمد لله في ذلك" انتهى كلام الشيخ إنعام.**

أقول: قد وضح الشيخ إنعام الحسن رحمه الله تعالى في النص السابق بما لا يدع مجالاً للشك، ما سبق أن قرره كل علماء الدعوة والتبليغ، وما أكدته أصولها أنها مؤسسة وقائمة على الاتباع، والدعوة إلى الوحيين الكتاب والسنة فقط لا غير، وأن علاقتها بكل الجهود المبذولة على الساحة، ومنها جهد التصوف، هو بما يوافق الربانية التي عبر عنها القرآن الكريم (بالتزكية) والحديث الشريف (بالإحسان) لا تلتفت إلى ما سوى ذلك، وأن أصول الدعوة ترد ما يخالف القرآن والسنة في ذلك واعتباره بدعة وضلالة، وأنه ليس له علاقة بالإسلام، ولا علاقة لأصول الدعوة به، فكل عمل بغير اقتداء فإنه لا يزيد صاحبه إلا بعدا، وليس للدعوة في ذلك وجهان، وإنما هو قول واحد لا محيد عنه ولا تغيير فيه، وهو موافق للأسس التي أصلها أئمة الإسلام لقبول العمل أو رده، ووجوب اتباع الكتاب والسنة كشرط لقبول الأعمال...

ونحن نُصدِّر كلامنا بالنصوص الثابتة في ذلك، أما الكتاب فالآيات كثيرة نشير إلى البعض منها ومن أراد التوسع فليرجع إلى مصادرها وهذه هي ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ (آل عمران) ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (النساء).

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ (النساء).

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) ﴾ (النور).

وأما السنة فمنها حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ يقول في خطبته "**خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**"[1].

وحديث الصحيحين "**فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة**"[2] .

وحديث عائشة "**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**"[3].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة ٢/٥٩٢ (٨٦٧).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن ج٤ ص٢٠١ باب "لزوم السنة"، والترمذي ج٥ ص٤٤ كتاب العلم باب "ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة" وقال هذا حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه الإمام البخاري ج٣ كتاب الصلح باب "إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود"، ورواه الإمام مسلم ج٢ كتاب الأقضية باب "نقض الأحكام الباطلة ومحدثات الأمور"، ورواه أبو داود وابن ماجه وأحمد والدارقطني.

قال الإمام أبو شامة في الباعث: "فالواجب على العالم فيما يرد عليه من الوقائع وما يسأل عنه من الشرائع، الرجوع إلى ما دل عليه كتاب الله المنزل، وما صح عن نبيه المرسل، وما كان عليه الصحابة ومن بعدهم من الصدر الأول، فما وافق ذلك أذن فيه وأمر، وما خالفه نهي عنه وزجر، فيكون قد آمن بذلك واتبع" انتهى.

فالأساس هو الرجوع إلى ما دل عليه كتاب الله المنزل، وما صح عن نبيه المرسل، وما كان عليه الصحابة ومن بعدهم من الصدر الأول، فما وافق ذلك أذنَّا فيه، وسارعنا إليه، وما خالفه نهينا عنه ورددناه، وهذه هي حقيقة الاتباع...

وحتى نتبين ما وافق الكتاب والسنة من الأمور المستحدثة، وما كان عليه المجتهدون من الصدر الأول، وما خالف ذلك، لابد لنا من مقدمة نُعرِف بها معنى "البدعة"، ما كان منها موافقًا وحسنًا ومقبولاً، وما كان منها مخالفًا وضلالةً ومردودا، والضابط في قبول الأمور المستحدثة وردها...

وإليك ملخصًا ما سبق أن سطرناه في هذا الموضوع في كتابنا "نظرة علمية في أهل التبليغ والدعوة" الجزء الأول "البدعة وتحديد الأوقات" فإنه نافع ومفيد، بلا مزيد عليه في هذا الباب، وفي تحقيق معنى البدعة وأنواعها، ومن أراد التوسع في معرفة ضابط هذا الأمر فليرجع إلى كتابنا ذلك، فهنالك يحصل على مبتغاه، ويتضح أمام نظره معناه، **فنقول** وبالله التوفيق:

البدعة لغة: فسرها الإمام شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني فقال: "وأما البدع فهو جمع بدعة وهي كل شيء ليس له مثال تقدم، فيشمل لغة ما يحمد ويُذم ويختص في عرف أهل الشرع بما يُذم وإن وردت في المحمود فعلى معناها اللغوي" انتهى. (فتح الباري ج١٢ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب "ما يكره من التعمق والتنازع والغلو في الدين والبدع).

وقال رحمه الله تعالى في فتح الباري: "والبدعة أصلها ما أُحدث على غير مثال سابق" . انتهى. (كتاب صلاة التراويح باب فضل من قام رمضان ج٤ ص٢٩٨).

وفسرها العلامة العيني رحمه الله تعالى في عمدة القارئ فقال: "والبدعة لغة كل شيء عُمل على غير مثال سابق" . انتهى.

أما في اصطلاح الشرع: فهناك أكثر من طريقة في تعريفها منها: ما ذكره الإمام الشاطبي في الاعتصام ج١ ص٣٧ فقال: "طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه" وهذا على رأي من لا يدخل العادات في معنى البدعة، وإنما يخصها بالعبادات. وأما على رأي من أدخل الأعمال العادية في معنى البدعة فيقول: "البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية" . انتهى.

وهذا التعريف يُنسب إلى الإمام مالك رضي الله عنه وأصحابه، وقد تابعه عليه الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى.

والبدعة على هذا التعريف ليس لها إلا معنى واحد وهو ما أُحدث بعد النبي صلى الله عليه وسلم على أنه من الدين والشرع وذلك بأن يجعل في الدين ما ليس منه زيادة أو نقصًا بناءً على تأويل أو شبهة ليس لها محل في الشرع وغير معتد بها.

فالمبتدع مضاه للشارع سبحانه حيث شرَّع معه.

ولنبدأ في شرح التعريف السابق..

أما قوله "طريقة في الدين" الطريقة أو الطريق هو ما رُسِم للسلوك عليه.

والدين ما شرعه الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، من العبادات والمعاملات والعقائد، وهذا قيد في التعريف يخرج ما يخترع في الدنيا فقط، لأنه لا يسمى بدعة: كإحداث السيارات والطائرات والصنائع المختلفة التي لم تكن معهودة في الصدر الأول فإنها لا تُسمى بدعة.

وقوله "**مخترعة**" قيد في التعريف يُخرج ما له أصل في الشرع فإنه لا يُسمى بدعة، ويخص به الأمر المخترع الذي ليس له مثال سابق وليس له أصل في الشرع.

وعلى هذا لا يعد بدعة كل العلوم الخادمة للشريعة كأصول الفقه وعلم الرجال وأصول الدعوة والنحو وعلم مصطلح الحديث وعلوم التفسير والبيان، فهذه وغيرها كلها - وإن لم تكن موجودة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم - فإن لها أصلاً في الدين يشهد لها ويدعو إليها.

فلا تُسمى بدعة إلا على المعنى اللغوي السابق وهو: ما أحدث على غير مثال سابق، وحينئذ لو فسرناها على المعنى اللغوي فلا يختص بها ذم..!

حيث إن ما استحدث بعد النبي ﷺ على هذا المعنى منه الممدوح ومنه المذموم، ومن هذا قول عمر رضي الله عنه في صلاة التراويح "**نعم البدعة تلك**" وذلك لأن أداءها بالكيفية المعروفة جماعة في كل يوم، لم يكن معهودًا على زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

أما من أطلق على سائر ما سبق اسم البدعة وخص به المعنى المذموم **فلا يعتمد عليه لعدم معرفته بمواقع البدعة والسنة..!**

فإنها وإن لم توجد في الزمان الأول فأصولها موجودة في الشرع، ولو سلمنا أنه ليس لها دليل مخصوص، فأدلة الشرع مجملة تدل عليها، حيث تندرج تحت قاعدة المصالح المرسلة، فبها كان اعتبارُها وعليها كان مدارُها.

وقوله "**تضاهي الشرعية**" يعني أنها تشبه الطريقة الشرعية غير أنها ليست في الحقيقة كذلك.

وقد ذكر غير الإمام الشاطبي من الأئمة معاني أخرى للبدعة، وأقوالهم في ذلك معالم هدى يُستضاء بها لبيان معناها فمنهم:

أولاً: الإمام الشافعي رضي الله عنه فقد روى عنه الحافظ ابن عساكر من طريق الربيع بن سليمان قال: قال الشافعي رضي الله عنه: (المحدثات من الأمور ضربان: أحدهما ما أُحدث يخالف كتابًا أو سنة أو أثرًا أو إجماعًا فهذه البدعة الضلالة. والثاني ما أحدث من الخير لا خلاف فيه لواحد من هذا فهذه محدثة غير مذمومة وقد قال عمر رضي الله عنه في قيام رمضان "**نعمت البدعة هذه**"[1] يعني أنها محدثة لم تكن وإذا كانت فليس فيها رد لما مضى).

وروى عنه أبو نعيم أنه قال: "البدعة بدعتان: بدعة محمودة وبدعة مذمومة فما وافق السنة فهو محمود وما خالفها فهو مذموم".

وروى عنه البيهقي في مناقبه أنه قال أيضًا: "المحدثات ضربان ما أُحدِث يخالف كتابًا أو سنة أو أثرًا أو إجماعًا فهذه بدعة الضلالة. وما أحدث من الخير لا يخالف شيئًا من ذلك فهذه بدعة غير مذمومة".

وما أورده الإمام البيهقي في معرفة السنن والآثار ج٤ ص٤٠٨ بسنده قال أخبرنا الربيع، قال أخبرنا الشافعي، قال: ولا أعلم التسبيح في التكبير، والسلام في الصلاة إلا محدثا، ولا أراه قبيحًا مهما

---

(١) رواه البخاري ج٣ ص٥٨ كتاب صلاة التراويح، والبيهقي في معرفة السنن والآثار قال البيهقي يعني أنها محدثة لم تكن وإذا كانت فليس فيها رد لما مضى.

أحدث إذا كبر الناس، قال: والمحدثات من الأمور: ضربان: (أحدهما) ما أحدث مخالفًا كتابًا أو سنة أو أثرًا أو إجماعًا، فهذه البدعة الضلالة.

(والثانية) ما أحدث من الخير لا خلاف فيه لواحد من هذا، وهذه محدثة غير مذمومة.

وقد قال عمر رضي الله عنه في قيام شهر رمضان: نعمت البدعة هذه يعني أنها محدثة لم تكن وإذا كانت فليس فيها رد لما مضى.

قال أحمد: قد روينا في حديث مرض النبي صلى الله عليه وسلم وصلاتهم خلفه، قال: وأبو بكر يسمع الناس تكبيره، فصار هذا أصلا لما أحدث في الجمعة، والله أعلم. انتهى.

ثانيًا: شيخ الإسلام النووي قال في صحيح مسلم ج١٦ ص٢٢٦: (باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة): قوله صلى الله عليه وسلم: "**من سن سنة حسنة ومن سن سنة سيئة**"[١]. الحديث وفي الحديث الآخر : "من دعا إلى هدى ومن دعا إلى ضلالة". هذان الحديثان صريحان في الحث على استحباب سن الأمور الحسنة، وتحريم سن الأمور السيئة، وأن من سن سنة

---

(١) رواه مسلم كتاب العلم "باب من سن سنة حسنة أو سيئة"، وفي كتاب الزكاة "باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة"، ورواه الترمذي في كتاب العلم "باب ١٥ ما جاء فيمن دعا إلى هدى فاتُبع أو ضلالة، ورواه النسائي في سننه كتاب الزكاة "باب التحريض على الصدقة"، ورواه ابن ماجة ج١ ص٧٤ حديث ٢٠٣.

حسنة كان له مثل أجر كل من يعمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة كان عليه مثل وزر كل من يعمل بها إلى يوم القيامة وأن من دعا إلى هدى كان له مثل أجور متابعيه، أو إلى ضلالة كان عليه مثل آثام تابعيه، سواء أكان ذلك الهدى والضلالة هو الذي ابتدأه أم كان مسبوقًا إليه، وسواء كان ذلك تعليم علم أو عبادة أو أدب أو غير ذلك. قوله صلى الله عليه وسلم: "فعمل بها بعده" معناه إن سنها سواء كان العمل بها في حياته أو بعد موته والله أعلم". انتهى.

قلت: فانظر إلى كلام هذا الإمام الجليل أن هذين الحديثين صريحين في الحث على استحباب سن الأمور الحسنة.

وهل ما سنه أهل الدعوة من أساليب في دعوتهم إلا مندرج تحت ذلك؟!!

ثالثًا: العلامة العيني رحمه الله في عمدة القارئ قال:

"والبدعة لغة: كل شيء عُمِل على غير مثال سابق، وشرعًا: إحداث ما لم يكن له أصل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي على قسمين: بدعة ضلالة، وبدعة حسنة؛ وهي ما رآه المسلمون حسنًا ولا يكون مخالفًا للكتاب أو السنة أو الإجماع.

رابعًا: قول العلامة الحديدي رحمه الله في شرح نهج البلاغة:

"لفظ البدعة يطلق على مفهومين أحدهما: ما خولف به الكتاب والسنة مثل صوم يوم النحر، وأيام التشريق؛ فإنه وإن كان صومًا إلا أنه منهي عنه. والثاني: ما لم يرد فيه نص بل سكت عنه ففعله المسلمون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما روى من قوله صلى الله عليه وسلم: "**كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**"(١) محمول على تفسير البدعة بالمفهوم الأول، وقول عمر رضي الله عنه في صلاة التراويح: " إنها لبدعة ونعمت البدعة هي"(٢): محمول على التفسير الثاني. انتهى.

خامسًا: الإمام الزركشي رحمه الله تعالى قال في قواعده: "البدعة في الشرع موضوعة للحادث المذموم".

سادسًا: قول السيد السند في تعريفاته:

"البدعة هي الأمر المحدث الذي لم يكن عليه الصحابة والتابعون، ولم يكن مما اقتضاه الدليل الشرعي".

---

(١) رواه الإمام البخاري ج٢ ص٢٧٤، ورواه الإمام مسلم كتاب الجمعة من حديث جابر بن عبد الله مطولا، ورواه أبو داود في سننه حديث رقم ٤٥٨٣، ورواه ابن ماجة ج١ ص١٥، ١٨" باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين".

(٢) سبق تخريجه.

قلت: فحاصل ما سبق أن البدعة عند الأئمة رضي الله عنهم لها معنيان:

أولاً: معنى خاص شرعي: وهو "الحادث المذموم" المخالف للكتاب والسنة والإجماع وقواعد الشرع، وعلى هذا المعنى تُحمَل كل الأحاديث التي وردت في ذم البدعة كقوله صلى الله عليه وسلم: "**كل بدعة ضلالة**"(١). وقوله صلى الله عليه وسلم: "**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**"(٢).

ثانيًا: معنى عام لُغوي: يتناول ما أحدث بعد النبي صلى الله عليه وسلم من خير أو شر، وعلى هذا كان كلام الأئمة في تقسيم البدعة إلى بدعة هدى وبدعة ضلالة، فما كان وفق كتاب الله تعالى أو سنة النبي صلى الله عليه وسلم أو قواعد الشرع فهو ممدوح.

وإطلاق اسم البدعة عليه إنما يكون بالاصطلاح اللغوي العام لمعنى البدعة الذي يشمل الخير والشر.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الإمام البخاري ج٣ كتاب الصلح "باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود"، ورواه الإمام مسلم ج٢ كتاب الأقضية "باب نقض الأحكام الباطلة ومحدثات الأمور"، ورواه أبو داود كتاب السنة "باب في لزوم السنة"، ورواه ابن ماجة ج١ ص٧.

خامسًا: شيخ الإسلام خاتمة الحفاظ أمير المؤمنين في الحديث الإمام ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى:

حيث فسرها بمثل ذلك في فتح الباري ج١٢ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب "ما يكره من التعمق والتنازع والغلو في الدين والبدع" فقال رضي الله عنه: وأما البدع فهو جمع بدعة وهي كل شيء ليس له مثال تقدم، فيشمل لغة ما يحمد ويذم ويختص في عرف أهل الشرع بما يذم وإن وردت في المحمود فعلى معناها اللغوي" انتهى كلام الإمام الحافظ ابن حجر.

وقال رحمه الله تعالى في فتح الباري أيضًا كتاب صلاة التراويح (باب فضل من قام رمضان) ج٤ ص٢٩٨ "والبدعة أصلها ما أحدث على غير مثال سابق وتطلق في الشرع في مقابل السنة فتكون مذمومة، والتحقيق أنها إن كانت مما تندرج تحت مستحسن في الشرع فهي حسنة، وإن كانت مما تندرج تحت مستقبح في الشرع فهي مستقبحة وإلا فهي من قسم المباح، وقد تنقسم إلى الأحكام الخمسة" انتهى.

قلت: ولعلك رأيت ما رأيت، وسمعت ما سمعت، مما سبق من كلام هذا الإمام الجليل وهو قوله: "والتحقيق أنها إن كانت مما تندرج تحت مستحسن في الشرع فهي حسنة".

سادسًا: نقل العلامة اللكنوي في كتابه إقامة الحجة ص٢١ قال: وفي " الطريقة المحمدية" لمحمد أفندي البركلي الرومي: إن قيل: كيف التطبيق بين قوله عليه الصلاة والسلام: "كل بدعة ضلالة"[١] وبين قول الفقهاء: إن البدعة قد تكون مباحة كاستعمال المنخل، والمواظبة على أكل لب الحنطة والشبع منه، وقد تكون مستحبة كبناء المدارس والمنارة وتصنيف الكتب، بل قد تكون واجبة كنظم الدلائل لرد شبه الملاحدة ونحوه.

قلنا: للبدعة معنى لغوي عام وهو : المحدث مطلقًا عادة أو عبادة لأنها اسم من الابتداع بمعنى الإحداث كالرفعة من الارتفاع، والخلفة من الاختلاف، وهذه هي المقسم في عبارة الفقهاء، يعنون بها ما أحدث بعد الصدر الأول مطلقًا، ومعنى شرعي خاص هو: الزيادة في الدين، أو النقصان منه، الحادثان بعد الصحابة بغير إذن الشارع، لا قولاً ولا فعلاً ولا صريحًا ولا إشارة، فلا يتناول العادات أصلاً، بل يقتصر على بعض الاعتقادات، وبعض صور العبادات، فهذه مراده صلى الله عليه وسلم بدليل حديث: "فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين"[٢] وقوله عليه السلام: "أنتم أعلم بأمر دنياكم"[٣] وقوله:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الإمام مسلم كتاب الفضائل ج٢ ص ٣٤٠ "باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره صلى الله عليه وسلم من معايش الدنيا على سبيل الرأي"، ورواه المتقي الهندي في كنز العمال حديث رقم ٣٢١٨٢ ج١١.

"من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"[1] انتهى.

قلت: فانظر إلى كلامه رحمه الله تعالى عليه في تقسيم البدعة إلى معنيين، وتخصيصه المعنى المذموم، بأنه الزيادة في الدين أو النقصان منه بغير إذن الشارع، لا قولا ولا فعلاً ولا صريحًا "وهو ما دل على المعنى بطريق المطابقة أو التضمن".

ولا إشارة وهو ما لم يسق إليه اللفظ قصدًا، ولكن لزم من سياق الكلام.

وذلك بخلاف المعنى المحمود الذي يكون الزيادة أو النقصان فيه بإذن الشارع، إما صريحًا أو إشارة أو بحسب قواعد الشرع العامة، والتي تدل على حسنه، وأن هذا الحسن إما على سبيل الندب إن دخل في قواعد المندوب، أو الوجوب إن اندرج في قواعد الوجوب.

نقول: تأسيسًا على ما سبق فإن إقرار أصول الدعوة والتبليغ ما يوافق كتاب الله تعالى من الربانية، التي عبر عنها القرآن الكريم (بالتزكية) والحديث الشريف "بالإحسان"هو بسبب أنها في هذه الحالة تندرج تحت وصف البدع الحسنة المتفق علي جواز فعلها والاستحباب لها.

---

(١) سبق تخريجه.

وقد قال الإمام أبو شامة في الباعث على إنكار البدع والحوادث ج١ ص١٣ "فالبدع الحسنة متفق على جواز فعلها والاستحباب لها، ورجاء الثواب لمن حسنت نيته فيها، وهي كل مبتدع موافق لقواعد الشريعة غير مخالف لشيء منها، ولا يلزم من فعله محذور شرعي وذلك نحو بناء المنابر والربط والمدارس وخانات السبيل وغير ذلك، من أنواع البر التي لم تعد في الصدر الأول فإنه موافق لما جاءت به الشريعة من اصطناع المعروف والمعاونة على البر والتقوى" انتهى.

وقال الإمام أبو شامة في الباعث ج١ ص٢٤

"ومما يعد أيضًا من البدع الحسنة التصانيف في جميع العلوم النافعة الشرعية، على اختلاف فنونها وتقرير قواعدها وتقسيمها وتقريرها وتعليمها، وكثرة التفريعات وفرض المسائل التي لم تقع، وتحقيق الأجوبة فيها، وتفسير الكتاب العزيز، وأخبار النبوة والكلام على الأسانيد والمتون، وتتبع كلام العرب نثره ونظمه وتدوين كل ذلك واستخراج علوم جمة منه، كالنحو والمعاني والبيان والأوزان، فذلك وما شاكله معلوم حسنه، ظاهرة فائدته، معين على معرفة أحكام الله تعالى وفهم معاني كتابه، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل ذلك مأمور به ولا يلزم من فعله محذور شرعي" انتهى وقد قال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله تعالى في شرح قوله صلى الله عليه وسلم كل محدثة بدعة هذا خاص في بعض الأمور دون بعض وهي شيء أحدث على غير مثال أصل من أصول الدين،

وعلى غير عبادته وقياسه وأما ما كان منها مبنيًا على قواعد الأصول، ومردودا إليها فليس بدعة ولا ضلالة والله أعلم" انتهى.

أقول: فقبلت الدعوة والتبليغ في أصولها ما وافق كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما ما يخالف الكتاب والسُّنة فليس بمقبول في الدعوة والتبليغ، ولا عند علمائها وشيوخها، ولا علاقة للدعوة به، وقد عبر عنهم الشيخ إنعام الحسن رحمه الله تعالى بقوله: **وأما يخالف ذلك فإننا نعتبره بدعة وضلالة ولا علاقة له بالإسلام ولا علاقة لنا به وليس لنا وجهان والحمد لله في ذلك". انتهى كلام الشيخ إنعام**

بل إنه عاد وأكد رحمه الله تعالى في نفس الرسالة على كلامه السابق وزاده توضيحًا وذلك بقوله رحمه الله: "**أما ما خالف كتاب الله وسنة رسوله من عقيدة أو عمل أو أقوال أو كشف أو كرامة فإننا نرمي به عرض الحائط، ولا نبالي به ونبرأ إلى الله منه ومن يقول أو يعتقد بشيء يخالف كتاب الله وسنة رسوله فإنه لا يساوي عندنا شيئًا، بل إننا نبغضه في الله كائنًا من كان كبيرًا أو صغيرًا هذا ما ندين الله به ونسأله سبحانه أن يحشرنا عليه آمين". انتهى كلام الشيخ إنعام .**

أقول: فهذا تأكيد من الشيخ إنعام الحسن رحمه الله تعالى في النص السابق إن أصول الدعوة والتبليغ تبرأ من كل ما يخالف كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، من عقيدة أو عمل أو أقوال أو كشف أو كرامة، وكل من يقول أو يعتقد بشيء يخالف كتاب الله وسنة رسوله فإنه لا يساوي في أصول هذه الدعوة

ومنهجها شيئًا، لأنه يكون بذلك مخالفًا للشريعة أو ملتزمًا بمخالفتها، ويكون مندرجًا بذلك تحت مستقبح في الشرع فهو مستقبح.

قال الإمام أبو شامة في الباعث ج١ ص

"وأما البدع المستقبحة فهي التي أردنا نفيها بهذا الكتاب وإنكارها، وهي كل ما كان مخالفًا للشرعية أو ملتزمًا لمخالفتها، وذلك منقسم إلى محرم ومكروه، ويختلف ذلك باختلاف الوقائع وبحسب ما به من مخالفة الشريعة، تارة ينتهي ذلك إلى ما يوجب التحريم، وتارة لا يتجاوز صفة كراهة التنزيه، وكل فقيه موفق يتمكن بعون الله من التمييز بين القسمين مهما رسخت قدمه في إيمانه وعلمه". انتهى

أقول: وتأمل معي ثانيًا قول الشيخ إنعام الحسن رحمه الله تعالى السابق حيث قال "الطرق الصوفية والبيعة ليست قطعًا من أصول هذه الدعوة كما هو مقرر ومعلوم ولا ندعو الناس أبدًا لها صراحة ولا إشارة ولا عربًا ولا عجمًا".

فرغم ما كان عليه رحمه الله تعالى طوال حياته من الالتزام بمنهج التربية والتزكية والاهتمام الكامل بذلك في خاصة نفسه، إلا إنه لم يكن يدعو إليه عموم الأمة، وعبارته واضحة في ذلك وهي قوله "**ولا ندعو الناس أبدا لها صراحة ولا إشارة ولا عربا ولا عجمًا" فإلى ماذا كان يدعو الشيخ إنعام الحسن رحمه الله؟**

وما هو العمل الكامل التام الذي ارتضاه لعموم الأمة للسير عليه وتحصيل الفوز الأبدي بمحبة الله تعالى ورضاه، ونشر عموم الهداية، والذي يتحصل بسببه على قيام أمة النبي صلى الله عليه وسلم على المقصود منها والذي اصطفاها الله تعالى به في نفسها وفي عموم البشرية والإنسانية؟

نقول: العمل الذي كان يدعو إليه الشيخ إنعام الحسن، والجهد الذي عاش به ورغَّب فيه، وضحى له طوال حياته، وفي رحلة عمره، ورأى أنه الأفضل من كل الجهود، والجامع لكل خير...

هو عمل الدعوة إلى الله تعالى وجهد التبليغ، لما رأى فيه أنه الأكمل والأفضل للأمة والذي به يتحقق مقاصد بعثتها، وتحصيل كامل وظيفتها ومسئوليتها، والذي يتوصل منه على كامل التربية والتزكية، والمثال على ذلك عندما طلب منه أحد الأخوة القدماء المجتهدين أن يوافقه على التصوف، ويأذن له فيه، أجابه الشيخ بقوله: **"ليس هناك أفضل من هذا الجهد وهو عمل الدعوة وأنت تبقى في هذا الجهد لأنه جامع لكل شيء". انتهى كلام الشيخ إنعام .**

أقول: فلم ير الشيخ إنعام الحسن رحمه الله أفضل من جهد الدعوة والتبليغ ليفرغ فيه المسلم الأوقات، ويبذل فيه الجهد والقربات، لأن جهد الدعوة هو الأصل ويجمع الله تعالى به لعموم أمة النبي صلى الله عليه وسلم جميع الدين، وكل ما سوى جهد الدعوة إلى الله تعالى هو فرع من هذا الأصل، كالذكر مثلا أو الإنفاق في سبيل الله تعالى على وجوه الخير أو بناء المساجد أو التأليفات والتصنيفات.. أو غير ذلك .

فنقدم هذا الأصل وهو جهد الدعوة والدلالة على الخالق، ومن خلاله تحيا كل هذه الفروع، ولكن إذا تشاغلنا عن هذا الجهد، وفرغنا الأوقات لواحد من هذه الفروع أو الجهود وانكببنا عليها ، واهتممنا بها، فيوما ما نفقد الاثنين معا، نفقد جهد الدعوة إلى الله تعالى الذي هو الأصل، والجالب لجميع المصالح، ونفقد معه هذا الفرع الذي شغلنا عن جهد الدعوة.

وهذا الذي قرره الشيخ إنعام بترجيح جهد الدعوة وتقديمه وتفضيله على أي جهود أخرى، هو ما أكده الشيخ سعيد أحمد خِان عندما استأذن منه أحد المجتهدين الليبيين أن يأخذ طريقة صوفية، فأبى عليه أشد الإباء **وقال له "عليك بجهد الدعوة فقط لأنه هو الأصل" وقال له الشيخ سعيد أيضًا " هذه الدعوة جامعة، وعمل أساسي وجامع، والتصوف فرع من الفروع فلو تمسكنا بالأساس لجمع الله لنا كل الدين أصوله وفروعه، ولو تمسكنا بالفرع نفقد الأساس والفرع أيضًا يومًا ما" انتهى كلام الشيخ سعيد أحمد.**

فخاف الشيخ سعيد أحمد أن ينقطع الأحباب المجتهدون عن جهد الدعوة، الذي هو الجهد الأساسي والجامع لكل الخير ، وما عداه فهو فرع من الفروع وأكد أننا إذا قمنا بالأساس والأصل، يوفقنا الله تعالى أن نمشي على كل الدين أصوله وفروعه، وإن تركنا هذا الجهد وهو عمل الدعوة وأخذنا بفرع من هذه الفروع وانشغلنا به، انقطعنا عن هذا الجهد وعن هذا الفرع الذي صرفنا عنه وقد ترجم الشيخ سعيد أحمد هذا الأصل الذي قرره بالقول عن طريق الفعل أيضا، وكان من أشد الناس في ذلك، يذكر عنه خادمه هذه الواقعة فيقول: "**رآني الشيخ سعيد أحمد أقرأ في كتاب الزهد فنزعه مني وقال أنت فقط تجتهد في هذه الدعوة وهذا الجهد جهد التبليغ فنحن لا ندعو إلى الزهد ولا نقيم الناس على الزهد ولكن نقيم الناس على هذا الجهد**" انتهى.

فمنع الشيخ سعيد أحمد خادمه أن يعمل ويتوجه على خلاف أسس الدعوة ومزاجها العام، الذي يبرز ويرقى في الجهد والحركة، والحرص والتواصل مع كل أحد من أمة النبي صلى الله عليه وسلم، يجلب النفع له ودفع الضرر عنه، **فموضوع الدعوة ومقصودها جلب النفع كل النفع لكل أحد بإدخاله إلى الجنة، ودفع الضرر كل الضرر عن كل أحد بإبعاده عن النار**، وذلك عن طريق الاجتهاد والتضحية بالنفس والمال، وبذل الأوقات الليل والنهار، حرصًا على نجاة الناس وهداية البشرية والإنسانية، وعن طريق المسح الشامل لكل شارع ولكل بيت ولكل مسلم، ولكل أحد وعبارتهم مشهورة في ذلك حيث

يقولون "**بيتا بيتا وفردا فردا**"، وقد أسسوا لأصول الدعوة حتى تكون موفقة ناجحة أن يجتهد كل داع في كل يوم بدعوة خمسة وعشرين شخصًا من أمة النبي صلى الله عليه وسلم، هذا على خلاف موضوع جهد العبادة والتزكية، فهو قائم على السكون والخمول والانكباب على النفس، وصقلها بالأذكار والعبادات، مع الحرص على البعد والعزلة عن الناس، وعن كل ما يقطع عن ذلك.

ومع التحذير السابق من الشيخ سعيد أحمد خان عن قراءة ما قد يوجه الأحباب والدعاة، بعيدًا عن مزاج الحركة والجهد على الأمة والرفق بها والحرص عليها وتفقدها، كان رحمه الله تعالى **يحرض الأحباب على قراءة حياة الصحابة.**

فكان الشيخ سعيد يطلب منهم أن يقرءوا الجزء الأول وينتهوا منه ثم الجزء الثاني وينتهوا منه وهكذا الثالث، بهذه الكيفية مرارا وتكرارا **حتى تتأكد للقارئ نيات ومقاصد الصحابة من خلال حياتهم وسيرتهم**، وكان رحمه الله يقول أهم شيء أن نمشي على منهج الصحابة لأن منهجهم يجمع الأمة كلها، وقد أخبرني أحد كبار المسئولين في الدعوة في بلد أفريقي أن المشايخ كانوا من أشد الناس اعتراضًا على هذه الأمور الفرعية، التي تؤدي إلى الانغماس في الجهود التي تركز على العبادة والعزلة، والتي تصرف عن عمل الدعوة وجهد التبليغ...

وإليك بيان الشيخ إنعام الحسن رحمه الله تعالى لشُعب الدين الإجمالية حيث قال رحمه الله تعالى: شعب الدين أربعة :

أولها: الدعوة إلى الله تعالى ثانيها: الدرس والتدريس

ثالثها: التزكية والتصفية رابعها: التأليف والتصنيف

وأهم هذه الشعب وأعلاها الدعوة إلى الله " انتهى كلام الشيخ إنعام.

فوضَّح رحمه الله تعالى الشعب الأساسية التي يجتهد المسلمون للدين من خلالها، فأولها الدعوة إلى الله تعالى وقد بين أنها أعلى شعب الدين التي يتحصل الإنسان منها على الهداية والإيمان والاستقامة، ثم ذكر الشعبة الثانية وهي دروس العلم الشرعي تعلمًا وتعليمًا، أما الشعبة الثالثة وهي التزكية والتصفية فهي المتعارف عليها الآن بين المسلمين بالتصوف الإسلامي، وأما الشعبة الرابعة فهي التأليف والتصنيف لمن كان له الأهلية لذلك، وقد بين رحمه الله تعالى في النص السابق، عنه أن أعلى شعب الدين في الجهود الأربعة المذكورة وأهمها هي الدعوة إلى الله تعالى، وذلك لأنها كما وضحنا عن مشايخ الدعوة في كلامهم السابق، هي الأصل والأساس لكل الشعب الثلاثة الأخرى والتي كمالها وازدهارها بوجود عمل الدعوة...

ونختم ما سبق بكلام مؤسس الدعوة والتبليغ الشيخ محمد إلياس في بيان تجربته في استعراض الجهود المختلفة للدين، والتي عمل بها لإحيائه، ثم خلص في النهاية إلى أن جهد الدعوة هو الأنفع والأهم للأمة، من أي من الجهود الأخرى، أو هو العمل الذي صرف فيه النبي صلى الله عليه وسلم كل القوة والجهد لدعوة عباد الله إلى الله...

قال الشيخ محمد إلياس في "الملفوظات" جمع وترتيب الشيخ محمد منظور نعماني ص١٣٦:

إنني في البداية كنت مدرسًا في مدرسة فاجتمعوا من القادمين عندي من الطلبة جما غفيرًا، فكان الكثير منهم أولوا استعداد جيد، ففكرت أن لا تكون نتيجة جهدي معهم سوى أنهم كما يفعلون الذين يأتون في المدارس الدينية ليصبحوا علماء، فبعدما يتعلمون مني كذلك يصبحون علماء، ثم ينشغلون في نفس المشاغل التي يمارسونها عامة في هذه الأيام.

أن بعضهم يدرس الطب فيصبح طبيبًا، وبعضهم يختبر في الجامعة فيتوظف في المدارس الهندية العامة، والبعض يصبح مدرسًا في مدرسة دينية فلا يُحصِّل أكثر من هذا، فبعد هذا التفكير انخلع قلبي من التدريس، ثم أتى الزمان الذي أجازني فيه شيخي فبدأت أرشد الطالبين الذكر، وإلى هذا العمل أرتكز بالي أكثر، وبفضل الله وردت على الناس الكيفيات والأحوال بسرعة، ورقيت حالات الناس بسرعة تحيرت أنا بنفسي على ذلك، ففكرت فيه ما هذه الحوادث فما

تكون نتيجة هذا العمل؟ ما هو إلا يبرزوا بعض أصحاب الأحوال، وبعض الذاكرين وأهل الكرامات ثم يشتهرون في الناس، فيأتون الناس إليهم لطلب الدعاء منهم ليفوزوا في محاكماتهم، ويأتى أحدهم ليطلب منهم الرقي للأولاد، والبعض يطلبوا الدعاء منه لابنه ليرتقي في التجارة، وأكثر من هذا أن بواسطة البعض منهم تسري من بعض طالبيه سلسلة الإرشاد والذكر.

وبعد هذا التفكير تحول اتجاهي من هذه الجهة أيضًا، فقررت أن المصرف الصحيح للقوة التي أنعمها الله علينا، بأن نصرفها في نفس العمل الذي صرف فيها الرسول ﷺ قواته، هو دعوة عباد الله إلى الله خاصة، دعوة الغافلين الذين ليس لهم رغبة إلى الله سبحانه وتعالى، وترويج تغذئة الروح في نشر أحكام الله تعالى إنما هو هذا مقصود حركتنا، وهو الذي نقوله للجميع، فإذا عمل هذا العمل بالفعل فقد كان قد أنشأ أكثر من هذه المدارس بالآلاف الأضعاف، وأكثر من هذه الخانقاهات بالآلاف الأضعاف، بل يصبح كل مسلم مدرسة وخانقاه بل توزع النعم التي أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم بصفة عامة حسب ما يليق بشأنها) انتهى كلام الشيخ إلياس رحمه الله.

أقول: فانظر إلى هذه الكلمات القيمة لمؤسس التبليغ والدعوة مولانا الشيخ محمد إلياس رحمه الله لرحلة حياته وجهوده لإحياء الدين، وتجاربه السديدة العملية لتحقيق ذلك، وكيف أنه بدأ محاولاته بالتدريس واجتمع عليه جم غفير من الطلبة، غير أنه عندما فكر في مآلات هذه التجربة وجد أنها محدودة في التأثير والثمرات، فانصرف قلبه عن هذا المجال للجهد واتجه إلى مجال آخر، وهو جهد التربية والتزكية والذكر، وقد بلغ فيه الغاية وأجازه الشيخ المربي لإرشاد الناس في جهد السلوك والتزكية وإجازتهم، وقد ترقى معه في السلوك حالات كثير من الناس وبسرعة لم تكن معهودة مع غيره من المربين، ولكنه عندما تفكر في مآل هذا الجهد وثمرته ونتيجته، وجد أنها تتلخص في تقدم وبروز بعض أصحاب الأحوال الطيبة، وبعض الذاكرين وأهل الكرامات، الذين يشتهرون في الناس فيأتي الناس إليهم، لطلب الدعاء منهم للفوز في بعض النزاعات والقضايا التي تؤرقهم، أو لطلب الرقية والشفاء لأمراض الأولاد، والبعض الآخر يطلب الدعاء لنجاح تجارة الأبناء، وذروة ذلك أن يختص بعض هؤلاء المترقيين في منهج التربية والتزكية، فيتأهل للإجازة والإسناد بسلسلة الإرشاد والذكر، ولكن بعد تفكير تحول اتجاه الشيخ من هذه الجهة أيضًا، وخلص إلى أن المصرف الصحيح للقوة التي أنعم الله بها علينا، بأن نوجهها ونصرفها في نفس العمل الذي صرف فيه الرسول صلى الله عليه وسلم جهده وأوقاته، وهو دعوة الخلق إلى الخالق، وبخاصة الحرص على دعوة الغافلين والتائهين والحائرين،

الذين ليس لهم رغبة في التقرب إلى الله تعالى وعبادته، والعمل على إقامة الإيمان، وتغذية الروح به نشرا لأحكام الله تعالى، فهذه كانت خلاصة تجربة هذا العالم الجليل للجهد للدين، وقد ذكرها وبينها ليوفر على غيره من المجتهدين أهل الإخلاص والتضحية إشغال الأوقات والأعمار بالإجابة على التساؤلات والحيرة، وليرشدهم إلى أكمل وأتم الجهود التي صرف النبي صلى الله عليه وسلم فيها جهده ووقته، وهو جهد الدعوة إلى الله تعالى ودلالة الخلق على الخالق.

وقد ذكر الشيخ أنه إذا أحيينا جهد الرسول صلى الله عليه وسلم، بإقامة عمل الدعوة إلى الله تعالى، فكأننا أنشأنا أكثر من هذه المدارس بالآلاف الأضعاف، وأكثر من هذه الخانقاهات بالآلاف الأضعاف، بل يتحول كل مسلم بنفسه إلى مدرسة وخانقاه، .

بل إن النعم التي أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم من صفات الرحمة والنصح والشفقة، وكل أخلاق القرآن توزع بصورة عامة، حسب ما يليق بشأنها على عموم المسلمين، وذلك عندما يعمل الدعاة إلى الله تعالى على إحيائها في الأمة، والدعوة على الالتزام والعمل بكل ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل على تقرير أو صفة في عموم البشرية والإنسانية.

وقال الشيخ إلياس رحمه الله أيضًا في الملفوظات ص ١٠٠:

(أن يتوجه ويجتهد الشخص في إخراج غيره، وتعلمه هذا العمل أكثر من أن يخرج ويعمل في هذا العمل، لأن الشيطان إذا تيقن من أن هذا الشخص قد قام لهذا العمل، وأنه لن يتوقف عنه مهما حاول، فحينئذ تكون محاولته الثانية بأن يتركه في أن يستمر هو في عمله مطمئناً، فأما الآخرين فلا يحاول في إخراجهم، فيرضى الشيطان لهذا الشخص بأن ينشغل في هذا العمل، منهمكا فيه بجميع حواسه بحيث لا يفيق منه، بأن يدعو الآخرين ويشغلهم في هذا العمل. فلذا لا نستطيع أن نهزم الشيطان إلا بإقامة الآخرين، وإشغالهم في هذا العمل وتعليمهم لهذا العمل، وأن نتوجه إلى هذا أكثر ما يمكن، محتسبين إلى أجره وثوابه لما وعدنا في القرآن والحديث على الدعوة إلى الخير والدلالة على الخير وأن نعلم أن هذه الطريقة أعلى سبب لرقينا وتقربنا فلنجتهد لهذا) انتهى كلام الشيخ إلياس.

أقول: فانظر إلى تقرير الشيخ إلياس رحمه الله تعالى إلى أن الأفضل للمسلم أن يجتهد ويعمل على إقامة الآخرين على جهد الدعوة إلى الله تعالى، وإخراج الناس في سبيله، ولا يكتفي كل واحد لنفسه فقط أن يكون هو في عمل الدعوة، بل الأولى والمطلوب هو إقامة كل مسلم في الوظيفة والمسئولية التي اختصت بها هذه الأمة، وهي دلالة المخلوق على الخالق، والخروج في سبيل الله دعاة إلى دينه واتباع سنة حبيبه، وقد بين الشيخ إلياس أن الشيطان إذا تيقن أن

أحدا من المسلمين قد التزم بعمل الدعوة وجعله مقصد حياته، وأنه لن يتركه لأي سبب كان، فإن الشيطان يتركه في هذه الحالة مستمراً في عمل الدعوة ومنخرطًا فيها، ولكنه يعمل في ذات الوقت بكل قوته على ألا يجتهد في إخراج الآخرين، أو إقامة الآخرين على عمل الدعوة، وقد ذكر الشيخ إلياس أن هذا لو حدث فإن الشيطان يكون بذلك قد حصل على مقصوده، بإلهاء الدعاة عن إقامة غيرهم على عمل الدعوة والخروج في سبيل الله، وقد وضح الشيخ إلياس أن هزيمة الشيطان في ذلك لا تتحقق إلا بإقامة كل داع لغيره، والحرص على الآخرين أن ينخرطوا في عمل الدعوة، وإشغالهم في هذا العمل وتعليمهم إياه، وأن نتأكد أننا نتوجه إلى هذا المقصود أكثر ما يمكن، ونحن في ذلك محتسبين لأجره وثوابه، الذي وُعدنا به في القرآن الكريم والسنة المطهرة، لمن كان سببًا للدلالة على الخير والدعوة إلى الخالق وعبادته، مع علمنا في ذات الوقت أن هذا العمل وتلك الوظيفة هي أعلى سبب لرقينا واصطفائنا عند الله تعالى، ولرضي النبي ﷺ عنا، وهي أقرب القربات بين سائر الطاعات، وأفضل ما يمحو الله تعالى به السيئات ويرفع الدرجات ويثقل الموازين، دلالة الخلق أجمعين إلى عباده وتعظيم رب العالمين.

وقال الشيخ إلياس أيضًا في "الملفوظات" ص ٧٨ وهو يؤكد أن عمل الدعوة هو الأساس والأصل لكل الجهود التي تعمل لإحياء الدين فقال: "**إن عملنا هذا هو من أساسيات الدين، وحركتنا هذه حركة حقيقة الإيمان، وأما الأعمال الاجتماعية الأخرى التي تُعمل هذه الأيام فيفترضون أن أساس الإيمان موجود فيقومون بالتعمير الظاهري وجل فكرهم في اللوازم الظاهرية. أما نحن فجل همنا نحو الأمة أن يدخل نور الإيمان الصحيح في القلوب أولا)** انتهى

وقال الشيخ إلياس رحمه الله أيضًا في الملفوظات ص٢٩: "فالغفلة عن العمل في دين الله والانشغال في الدنيا بدون مراعاة أوامره وأحكامه فهو إعراض عنه وهو انشغال وانهماك في ما سواه وعكس هذا الانشغال في الله هو أن يُشغل نفسه في نصرة دينه وامتثال أحكامه، ولكن مع مراعاة أن الشيء إذا كان أهم وآكد فيتوجه إليه حسب أهميته ووجوبه، فيُعلم هذا من أسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسنة، **فمن المعلوم أن أكثر ما اجتهد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثر ما تحمل الإيذاء فيه هو إعلاء كلمة لا إله إلا الله. أعني إعداد الناس لعبودية الله وهدايتهم إلى طريقه فهذا العمل يكون هو الأكثر أهمية ويكون الانشغال في هذا انشغالاً في الله تعالى في المرتبة العليا) انتهى كلام الشيخ إلياس**

وقد بين الشيخ محمد الثاني الحسني في كتابه "**الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي" حياته ومنهجه في الدعوة ص ٥٤٥** أن ازدهار أحكام الله ورقيها منوط ببذل النفس للإيمان، واحتمال الأذى في سبيله، وقد من الله تعالى على الصالحين من أمة النبي ﷺ بعمل الدعوة، الذي هو الأصل والأساس في حصول ذلك، قال الشيخ محمد الثاني الحسني: وكتب الشيخ محمد يوسف في إحدى رسائله التي بعث بها إلى أحد الدعاة "إن ازدهار العالم ورقيه منوط باتباع أحكام الله مباشرة، وازدهار أحكام الله ورقيها منوط ببذل النفس للإيمان، واحتمال الأذى في سبيله، وقد وهب الله تعالى بفضله وكرمه عباده الصالحين صورة امتثال تلك الأحكام العالية، التي تزدهر فيها أحكام الله تعالى كاملة، وإن تلك النفوس مباركة وزكية، وهي التي تضحي بعواطفها ورغباتها لدى بؤس وشقاء عامة الخلق ، وتُؤثر رضا الله تعالى في كل حال من الأحوال" انتهى كلام الشيخ محمد يوسف .

ويقول في موضع آخر : "**لا نهدف بعمل الدعوة والتبليغ إلى نشر أمر من الأمور، بل نسعى عن طريقه إلى إحياء كل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وطبقه تدريجيا في المسلمين حسب استعدادهم**، وكان أساس جميع هذه الأعمال ترويج عادة ترك الراحة، والهجرة في سبيل الله، وكلما عمت هذه العادة وراجت، نزلت سكينة الله تعالى وعمت شآبيب رحمته على عباده" انتهى كلام الشيخ يوسف.

قلت: فانظر إلى قوله رحمه الله وكان أساس هذه الأعمال ترويج ترك الراحة والهجرة في سبيل الله، فهو يشير بهذا القول إلى عمل الدعوة والخروج في سبيله، الذي هو الأساس في إنشاء اليقين على أوامر الله تعالى، وإحياء بيئات الإيمان في منهج اليقين والتقوى، وقيام أمة النبي صلى الله عليه وسلم وعموم البشرية على المقصد الذي من أجله كان خلق الإنسان ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ (الذاريات: ٥٦) ولنقل الأمة من المخلوق إلى الخالق، ومن الدنيا إلى الآخرة ...

ويقول الشيخ محمد الثاني في موضع آخر : ويذكر المفتي زين العابدين انطباعاته بالألفاظ الآتية:

"**كان الشيخ يعتبر عمل الدعوة أقوى عمل من أعمال النبوة، وكان يقول: إنه عمل الأنبياء الأخص، وأن نصرة الله التي تخص بالأنبياء تنزل بهذا العمل بشرط أن يكون هذا العمل موافقًا لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ومنهجه**". انتهى

أقول: وهذا الذي نقرره دائمًا، أن عمل الدعوة أولى مقاصده الموافقة التامة لسنة النبي صلى الله عليه وسلم ومنهجه وحياته، وإحياء كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة، في أنفسنا وفي عموم الأمة، والسعي للحصول على الهداية ورضا الله عز وجل.

وقد ذكر الشيخ محمد الثاني الحسني في كتابه الشيخ " محمد يوسف الكاندهلوي" حياته ومنهجه في الدعوة نظرة الشيخ محمد يوسف للجهود المبذولة لإحياء الدين وكيفية تقييمه لهذه الجهود فقال تحت عنوان: "مستوى الجهد ونتائجه".

تظهر نتائج الجهد الديني بقدر هذا الجهد، فإذا بذل الجهد ليكون من لا يصلى مصليًا يبدو أثر هذا الجهد في شكل الصلاة وجعل الناس يهتمون بالصلاة إلا أنهم لا يهتمون بأمور دينية أخرى، وإذا بذل الجهد للحج، ازداد عدد الحجاج إلا أن الاهتمام بالصلاة والزكاة لا يعم، وإذا بذل الجهد للاهتمام بالعبادة والذكر والتلاوة، عم هذا الهم في الناس، ويبدأون الاهتمام بالعبادة والذكر والتلاوة، ويتزهد الناس، ويحيون الليالي إلا أن سلوكهم وأخلاقهم لا تكون حسب التعاليم الدينية، وكان الشيخ لا يدعو إلى الجهد الجزئي والنصفي، بل كان يؤكد على الجهد الذي يشمل جميع مجالات الحياة، وعلى اتباع أحكام الدين في سائر شعب الحياة "ادخلوا في السلم كافة" وكان الشيخ يقول: "لم يأت بعد عهد تظهر فيه نتائج هذا الجهد الأوسع، فقال مرة: "قدر الله تعالى الهداية بقدر المجتهدين لها، فالأماكن التي قبلت هذه الدعوة كتب لها الهداية بقدر قبولها، وبدأ الدين يهب ويزهر، فالمناطق التي كان الناس لا يصلون فيها بدأ الناس يصلون، والأماكن التي كان الناس لا يصومون فيها، بدأ عدد من المسلمين يصومون، والأماكن التي كان

الناس لا يحجون فيها بدأ بعض الناس يحجون، والأماكن التي كانت تجهل تعاليم الدين، بدأت حلقات التعليم تقام فيها وانتشر نور العلم، وتبدد ظلام الجهل، ولكنها لم تنل بعد الهداية الكاملة كما يجب مثلا رعاية أحكام الدين في كسب الرزق والأكل والشرب، والشؤون المنزلية والأمور الإدارية، والمعاملات والتجارة والزراعة لا تتم، ولا يختار طريق الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يقتدى به فنحن معشر المسلمين في حاجة اليوم إلى أن نرفع مستوى جهدنا ليعم تعاليم الإسلام في سائر شؤون حياتنا، وتصل هداية الإسلام إلى غير المسلمين أيضًا بهذا الطريق" انتهى كلام الشيخ يوسف.

كان ذلك بغية الشيخ وهدفه الذي كان يسعى إليه طول حياته، ويوجه الدعوة إليه ويركز اهتمامه على هذا الجانب، كانت هداية العالم كله نصب عينيه، ولأجل ذلك كان يؤكد على بذل جهد عالمي) انتهى.

وقد ذكر الشيخ محمد الثاني في موضع آخر من كتابه اختلاف الجهود للإنسان في هذه الحياة الدنيا فمنها ما يكون محدودا ومقصورا على مصالح فردية، ومنها ما يكون شاملا بحيث يغير نفس الإنسان وباطنه، ويتعدى أثره من الظاهر إلى الباطن، وهو السعي إلى التقوى والإيمان، والذي يتحصل الإنسان من خلاله على كل ما يحتاج إليه من مال ومتاع، ويحقق له الفوز الأبدي والحياة الطيبة، في الدنيا والآخرة فقال رحمه الله تعالى ص١٤٥ تحت عنوان:

الطريق الصحيح للجهد:

لا ينقص اليوم الجهد، كل شخص يبذل الجهد، فمنهم من يجتهد اجتهادا محدودًا، ومنهم من يجتهد اجتهادًا أشد، ولكن جميع هذه المساعي محدودة ومقصورة لا تهدف إلا إلى مصلحة فردية ضيقة، ككسب المال، ووسائل الراحة البدنية، فتضيع هذه المساعي كلها في رأي الشيخ وتحبط ولا تغني الإنسان فإن السعي الحقيقي لديه هو السعي الذي يغير نفس الإنسان وباطنه، ولا يصلح الظاهر فقط، ويبين الشيخ الفرق بين هذين النوعين للسعي.

"يشيع اليوم في هذا العالم السعي على الأشياء للحصول على أشياء، فيجتهد الفلاحون في مزارعهم للحصول على الحبوب الغذائية، فيركزون جهدهم على الزراعة ورجال التجارة والصناعة يبذلون جهدهم على البضائع التجارية والمصنوعات، وهذا الجهد هو الجهد الشائع اليوم، والطريق الآخر هو السعي للتقوى والجهد له، وهذا هو السعي الذي يكسب للإنسان كل ما يحتاج إليه من المال والمتاع، ويحقق له النجاح والفوز والخير والبركة في الدنيا والآخرة، يقول القرآن الكريم ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق: ٢) ويقول في موضع: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦).

وقال في موضع آخر:

"شاع في العالم اليوم الجهد للمال، وللأشياء المادية فقط، وقد نسى الناس التقوى وإقامة الصلة بالله على أساس اليقين والإيمان، والأخذ من فضل الله تعالى، والواقع أن هذا الطريق هو الطريق الذي ندعو له في كل ركعة في الصلاة"

وأوضح هذا الأمر في مناسبة أخرى بكلمات أوضح:

"إن هناك مجالين للسعي، السعي للأرض وأعمال الأرض، والثاني السعي للإيمان وأعمال الإيمان، وجزاء السعي الأول وأجره يحصل في الدنيا، ولكنه أجر لا يرضي أحدًا ولا يغني، وجزاء السعي الثاني وأجره في الآخرة والدنيا جزاء موفورا".

وقال في موضع آخر، وهو أكثر وضوحًا وشرحا للنقطة السابقة: "إنه طريق سائر أنبياء الله ورسله، والمتبعين لهم من عباد الله الصالحين، وعلى عكسه الذين حرموا هداية الله، وحل بهم غضب الله، طريقهم أنهم لا يبالون باليقين بذات الله وصفاته، ولا يجتهدون إلا للأمور المادية، ويسعون إليها غير مبالين بالعبادة له والاستعانة به" انتهى كلام الشيخ محمد يوسف.

وقد بين الشيخ محمد الثاني الحسني في كتابه الشيخ "محمد يوسف الكاندهلوي" (حياته ومنهجه في الدعوة) أهمية الدعوة وأثر جهد الأنبياء في هداية البشرية ومقاصد دعوة الأنبياء فقال تحت عنوان:

"جدوى الجهد"

إن جهد الأنبياء لم يكن للنفع الذاتي، ولا للرقي المادي، ولا للمصلحة الشخصية بل كان هدفه هداية الإنسانية عامة وينبغي أن يكون ذلك هدف سائر المجتهدين في هذا الطريق إلى يوم القيامة، وبهذا الطريق يأتي نصر الله ونفتح الطرق إلى الأمام، وقال الشيخ: "إن غاية هذا الجهد أن يحصل للمجاهدين في سبيله وأفراد الإنسانية الآخرين الهداية، ويسير الإنسان على جادة الدين بتوفيق الله ورحمته وبارتفاع مستوى الجهد تتوسع هداية الله ونعمه، وعندما ينكمش هذا الجهد تنكمش الهداية، وتخرج الهداية أولا من التجارة والسلوك وذلك بطريق العمل في التجارة والسلوك حسب عُرف الآخرين ومنهجهم وعدم رعاية آداب الدين فيها، ثم تخرج الفرائض من الحياة وتبدأ المعاصي الأخرى وتدخل فيها، إلى أن يخرج المسلمون كليًا من الدين، وإذا بذل الجهد على طريق الأنبياء، تدخل الهداية وتنشر وتعم بمدى انتشار هذا النوع من الجهد وارتقائه" انتهى كلام الشيخ يوسف.

وهذا هو ما أسس عليه أهل الدعوة والتبليغ جهدهم أثناء قيامهم بعمل الدعوة، مع ربط أنفسهم والأمة بما هو أتم وأكمل وأنفع لهم وأرضى لمولاهم، وتقديم ما يدوم ويتصل على ما يفنى وينقطع، والعمل على نقل أنفسهم والناس من الدنيا إلى الآخرة، ومن قصد المخلوق في طلب الأشياء إلى طلب وقصد الخالق وحده لا شريك له، توجها وطلبا واستعانة وتوكلا، والحرص التام على

ذلك حتى تتحقق لهم الهداية ولعموم أمة النبي صلى الله عليه وسلم...

وأذكر ولا أنسى العبارة المشهورة في الهدايات والإرشادات، التي يتلقاها من فرّغوا أنفسهم لعمل الدعوة والخروج في سبيل الله للدلالة عليه، هذه العبارة هي قولهم مرشدين لهؤلاء الدعاة وقد يكون أحدهم قد فرّغ نفسه لأول مرة، يا أحبابنا أنتم تقومون للدلالة على الخالق والدعوة إليه، وقد تأتي العوائق، ويضع الشيطان في سبيلكم العقبات، فأيا من المشكلات تعترضكم فحلها الوضوء والصلاة توجهًا إلى الله وطلبا للحاجة، وعبارتهم صريحة في التوصية بذلك أمام الصعوبات حيث يقول قائدهم توجهوا يا أحباب، فيفزع الجميع فورًا للوضوء والتوجه والقصد إلى الله تعالى ليكشف العسير ويأتي بالتيسير، ولم يعلم قائلهم ولم يدر أيٌّ منهم، أن هذا الذي يتعلموه، بهذه السهولة والبساطة عمليًا وفعليًا، أثناء قيامهم بأعمال الدعوة، هو المقصود من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وهو إفراد الوجهة إلى الحق، وقصد المولى عز وجل وحده بالطلب لا المخلوق أيا ما كان، ورفع الهمة عن الخلق أينما وجدوا وكيفما كانوا، حتى لا يبقى ركون ولا سكون، ولا توجه ولا طلب إلا إليه، ولا اعتماد إلا عليه، وهو زبدة التوحيد وخلاصة الملة، وحقيقة العبودية قال تعالى ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ (المزمل: ٩). فبسبب الدعوة تأتي الهداية والاستقامة في أنفسنا.

قال الشيخ يوسف رحمه الله: **(الذي يدعو الناس هو أول من يكون في الهداية: "لنهدينهم سبلنا" فالدعوة سبب الهداية والاستقامة ، إذا دعا الإنسان إلى دينه تأتي إليه الاستقامة فنحن ندعو حتى يأتي الدين في حياتنا)** انتهى كلام الشيخ يوسف.

في عمل الدعوة أول ما نحتاج إليه هو الانشراح التام في حق هذا العمل باطمئناننا عليه، وأن به وفيه تمام وكمال هدايتنا وإيماننا، بقدر هذا الانشراح بقدر ثباتنا ويقيننا في تحصيل كمال الهداية والإيمان منه، ليس لأنفسنا فقط ولكن لعموم البشرية والإنسانية، وهذا هو الموعود الحقيقي من الله تعالى والذي لا يتغير ولا يتخلف وهو قوله تعالى " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا" فوعد الله تعالى من جاهدوا فيه، للدلالة عليه ودعوة الخلق إليه، بهدايتهم في ظلمات المحن والهوى والتيه والحيرة، إلى طرقه المضيئة وسبله المنورة التي أضافها سبحانه وتعالى إلى ذاته المقدسة الشريفة، تنويها بفضلها وتعظيما لشأنها، فليس كل ما يتحمله الإنسان من الجهد هو مجاهدة، وإلا كان السارق مجاهدا، والقاتل مجاهدا، **ولكن المجاهدة كل تكليف يخالف صفة الإنسان ومزاجه من أجل امتثال أمره سبحانه وتعالى، هذا يسمى عند الله مجاهدة، وغالبًا ما يكون محفوفًا بالمكاره "حُفت الجنة بالمكاره"**[1].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

ومع كون المجاهدة في امتثال أمر الله تعالى وطاعته محفوفة بالمكاره، إلا **أن كل مجاهدة يتحملها الإنسان في الدلالة على الله عز وجل والدعوة إليه مخفي فيها نور الهداية، لموعود الله في ذلك**، فكما أن كل نواة مخفي فيها شجرة مثمرة تنفع العالمين، فكل مجاهدة في الدعوة إلى الله تعالى والدلالة عليه مُضمر فيها نور الهداية، وكلما ازداد الإنسان في التضحية والمجاهدة، وبذل النفس والمال في سبيل الله تعالى، لتعظيمه والدعوة إليه، كلما ازداد الإنسان نورًا وهداية بالضرورة، وانكشف عليه منفعة تحمل الشدائد في سبيل الدين، وإحياء أوامر الله تعالى في نفسه وعموم البشرية إلى قيام الساعة والله تعالى يقول ﴿**ومن جاهد فإنا يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين**﴾. فالذي يجتهد هو يجتهد على نفسه بالأساس لأننا نحن المحتاجون بالأصل والله عز وجل يرزقنا على نيتنا وقصدنا لطاعته.

الشمس نراها في أول الأمر الضوء حولها، وكلما ارتفعت تتنور بنفسها ويمتد ضوءها في كل مكان، هكذا الداعي والمجاهد في سبيل الله تعالى ﴿**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا**﴾ الجعل إنما يكون من الله تعالى على سبيل الوهب لا الكسب إذا ضحى الإنسان بنفسه وماله مخلصًا لله تعالى في الدعوة إليه، فالله تعالى يضيف خطوته الأولى إليه في سبيل المجاهدة له تعالى وحده ﴿ **والذين جاهدوا فينا** ﴾ فينسب المولى عز وجل هذا الجهد المبذول إليه تشريفًا وتكريما بقوله "**فينا**".

فالله تعالى اختاره لذلك، ووفقه لذلك، وهو أيضًا لا يختار على الله عز وجل غيره ﴿ **هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾ قال العلماء كما لم يختر عليك لا تختر عليه أحدًا، ومع صدق نيته وإخلاصه لربه ومولاه، يبدأ يتنور في داخله، ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام**﴾ قال صلى الله عليه وسلم "**إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح، قالوا يا رسول الله هل من ذلك علامة يُعرف بها؟ قال: نعم التداني من دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل الموت**"[1].

عندما تركنا جهد الدعوة للدين خرج الدين من حياة الناس، والله تعالى بعد ذلك رفع العزة عنهم وأذلهم، وعمر رضي الله عنه كان يقول "كنا أذل الناس فأعزنا الله بالإسلام فلو ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله" فعندما جاء الدين في حياة الصحابة رضي الله عنهم أعزهم الله على أمم الأرض، وهم ما تحصلوا على هذه العزة إلا لأنهم قاموا على مقصد وجودهم، فالله سبحانه وتعالى سخر السماوات والأرض من أجل أهل الإيمان، وعندما لا يبقى على وجه الأرض من يقول "الله الله" يدمر الله تعالى الكون من أجل ذلك، "فلا تقوم الساعة إلا على شرار الناس يتهارجون كتهارج الحمر"[2] في

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٠٩/٥) وعزاه إلى ابن مردويه، والحاكم في المستدرك (٤١١/٤)، والبيهقي في الشعب (١٠٥٥٢٦).

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة وأحمد والحاكم.

الوقت الذي يخرج فيه الدين من حياة الإنسان، ولا يكون هناك من يدعو إلى عبادة الخالق، الإنسان حينئذ يتدنى حتى يكون على أوصاف الحيوان في تهارجه.

فعمل وجهد الدعوة إلى الله تعالى حتى يأتي الصلاح في معاملتنا فينصلح بذلك العالم عند إقامة صفات الإيمان ويصير الإنسان يحيا كإنسان الداعي إلى الله تعالى يمشي ويتجول في العالم ليقيم دين الله تعالى، وهذا كان مقصود تضحية الخليل إبراهيم عليه السلام، عندما أمره الله تعالى أن يضع زوجته وابنه في واد غير ذي زرع على مسافة ١٢٥٠ كم، من مكان الراحة والعشب والكلأ في الشام، إلى مكان حار في رمضاء مكة، حيث توجه عليه السلام بالدعاء إلى ربه بقوله ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي حتى يقيموا الناس على الصلاة وعلى الدين كاملاً، فهذه ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ (الحج: ٧٨) . ولكن من أين تقضى حوائجهم، الخليل عليه السلام دعا أن يجعل حب الناس في قلوبهم ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ (إبراهيم: ٣٧) ودعا بكمال وتمام الرزق لهم إن حافظوا على وظيفتهم وأدوا مسئوليتهم حيث قال ﴿ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (إبراهيم).

فمقصد جهد وحياة هذه الأمة أن تقيم دين الله تعالى في العالم كله بالدعوة إليه سبحانه والله تبارك وتعالى هو قاضي الحاجات يقضي حاجاتها من الأزل إلى الأبد، من خزائنه الغيبية، وقد

استجاب الله عز وجل لدعوة الخليل عليه السلام فكل الأشياء موجودة عند بيته الحرام طوال العام، وهناك في مكة لا يأتي النقصان في أي شيء في الطعام والشراب وغير ذلك، كذلك في هذا السبيل وعند الدعوة يقبل الله تعالى دعاء الناس، مثل قبوله لدعوة الخليل ودعوة عموم الأنبياء عليهم السلام.

الفرق بين الخير المتعدِّي والخير الذاتي

والدعوة إلى الله تعالى هي من أفضل الأعمال لأنها من الخير المتعدي الذي يعم نفعه وتتعدى فوائده لكل أحد قال الله تعالى ملخصا حياة النبوة في الآية الكريمة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٤٥) فقوله تعالى "**إنا أرسلناك شاهدا**" أي على الأولين والآخرين والمرسلين، وقوله تعالى "**ومبشرا**" بالجنة وجلب النفع كل النفع لكل أحد بإدخاله إليها وهذا من الخير المتعدي فهو يجلب النفع لكل أحد في الدنيا بأن يحيي حياة طيبة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ (النحل: ٩٧) وعند الموت بنفي الخوف والأحزان والتبشير بالجنان ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (فصلت: ٣٠).

وفي الحشر ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ (مريم: ٨٥) وهو يجلب النفع لكل أحد بدخول الجنة والحصول على الفوز الأبدي ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ٤٣).

وقوله تعالى "**ونذيرا**" بالنار ودفع الضرر كل الضرر عن كل أحد بإبعاده عنها، وهذا من الخير المتعدي أيضًا فهو يدفع عنه الضرر في الدنيا بالنجاة من الحياة الضنك ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي

فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ (طه: ١٢٤) ويدفع عنه الضرر عند الموت ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ﴾ (المؤمنون: ٩٩) وفي البعث ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ (الحاقة: ٢٦) وهو يدفع عنه الضرر بإبعاده عن النار يوم القيامة ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ (فاطر: ٣٧).

وأصل النعم هي نعم الله تعالى الأبدية الباقية، فالدعوة إلى الله تعالى وجهد الخروج في سبيله حتى ننتقل من الحياة قبل الموت إلى الحياة بعد الموت ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ (طه: ٧٥).

بعض الناس يجتهدون لإصلاح أحوالهم وذلك بالاجتهاد على أعمالهم وأذكارهم وهذا جهد الصالحين.

يقول العلماء هناك جهد واحد وميادين ثلاثة: أولاً: مجال جهدنا أنفسنا وأعمالنا، وهذا جهد الصالحين وجهد العبادة، فإذا كان مجال جهدنا الصالحين فيأتي الإصلاح على الأفراد، وينتشر بهذا الجهد الإيمان في الأفراد وحدهم وهذا من الخير الذاتي.

ثانيًا: مجال جهدنا أنفسنا وأقوامنا وبلادنا وقريتنا، وهذا جهد الأنبياء السابقين...

ونحن إذا كان ميدان جهدنا هو جهد الأنبياء الذين سبقوا نبينا ﷺ فينصلح بهذا الجهد المجتمع ولا ينصلح العالم، ولا يمتد الإيمان والإصلاح إلى العالم فهو من الخير المتعدى المقيد.

ثالثًا: ميدان جهدنا أنفسنا والعالم كله فهذا جهد سيد المرسلين محمد ﷺ وعندما نقوم على هذا الجهد يتغير الأفراد والبيئة والعالم، وتتحول البشرية والإنسانية إلى الإيمان والربانية، فينصلح العالم كافة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ: ٢٨) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

بجهد الأنبياء السابقين قام الأفراد وبجهد خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم قامت الأمة والجماعة المؤمنة والعالم ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

وهذا هو الخير المتعدي العام المطلق، المخصوص به سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وأمته من بعده وسمي خيرا متعديًا لأنه يتعدى من فاعله لكل أحد على وجه المعمورة، وهو الخير العام الشامل الكامل الذي يعم نفعه جميع المكلفين، ويشمل خيره عموم أنفسنا وأهلنا وقومنا وأمتنا والبشرية جمعاء، والإنسانية كافة، وقد كملت فيه الأجور، وتم به الخير المتعدي لزماننا ومكاننا، وأمتنا وقومنا، إلى كل نسمة

تحيا، وكل قدم تدب، فنحمل إليها الإيمان والتقوى ومعرفة الرحمن ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٦٣).

نحن ميدان جهدنا ليس لأنفسنا ولا لجماعة ولا لأهل الدعوة، ولكن لتكوين الأمة وإصلاح أنفسنا والأمة والعالم، والمقصود من الخروج في سبيل الله والدعوة إليه كيف ترجع نفوسنا إلى الدين الكامل، الذي تركنا عليه النبي صلى الله عليه وسلم **فالتبليغ هو التغيير، كيف نتغير مما نحن عليه إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، كيف تتغير نفوسنا مما هي عليه من الصفات المذمومة، من الكبر والعجب والحقد والحسد وحب الظهور والرياء، إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من صفات الإيمان والإحسان، مثل التواضع والافتقار وإخلاص القصد والعمل لله تعالى وحده.**

ومن فضل هذا الخير المتعدي على الخير الذاتي، أن الخير المتعدي إلى الغير يؤجر عليه صاحبه حتى لو لم يتمكن صاحبه من استحضار نية له لقوة أصله وشيوعه مع كون وجود النية معه أعظم للأجر عند استحضارها، وقد ذهب إلى ذلك بعض أهل العلم حيث قالوا:

"أن الخير المتعدى إلى الغير يؤجر عليه الإنسان من غير نية، لكن بالنية يكون الأجر أعظم، واستدلوا على ذلك بقول الله تعالى: ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ١١٤).

فجعل الله في تلك الأمور خيرًا، ثم أخبر أن من فعل ذلك ابتغاء مرضات الله سيؤتيه أجرًا عظيما".

وعن عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله) قال: قلتُ لأبي: أتهجد بالليل أو أكتب العلم؟ فقال: اكتب العلم قال الحافظ الدمياطي: " وإنما قال له ذلك لأن كتابة العلم يتعدى نفعها إلى غيره فله أجره وأجر من انتفع بذلك في حياته وبعد موته أبدًا، وأما التهجد فليس له إلا أجره فقط والله أعلم" انتهى.

والدعوة إلى الله هي من الخير المتعدى الذي هو من أفضل الأعمال وأكمل القرب ...

ومن فضل الخير المتعدى على الخير الذاتي أن أساسه وأصله إيصال المنافع بأنواعها ودفع المضار على اختلافها...

وفي ذلك يقول الإمام الآلوسي في روح المعاني ج٢ ص١٣٩ عند قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (النساء: ١١٤) "وذكر الإمام الرازي أن السر في إفراد هذه الأقسام الثلاثة بالذكر أن عمل الخير المتعدى إلى الناس، إما لإيصال المنفعة أو لدفع المضرة، والمنفعة إما جسمانية كإعطاء المال، وإليه الإشارة بقوله: "**إلا من أمر بصدقة**" وإما روحانية وإليه الإشارة بالأمر بالمعروف، وإما رفع الضرر فقد أشير إليه بقوله تعالى: "**أو إصلاح بين الناس**" ولا يخفى ما فيه، والمراد من الإصلاح بين الناس التأليف بينهم بالمودة إذا تفاسدوا من غير أن يجاوز في ذلك حدود الشرع الشريف". انتهى

وهذا الخير المتعدى هو المقصود الأول من بعثة الرسل، فإن خيرهم ونفعهم يتعدى للغير فيتنفع به أقوامهم، واكتمل مع نبينا الأكرم ورسولنا الأعظم حتى تعدى نفعه إلى العالم بأسره وعموم البشرية والإنسانية، ولم يتوقف على حياته صلى الله عليه وسلم بل انتقل النفع ومسئوليته ووظيفته إلى أمته من بعده ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ (يوسف: ١٠٨) ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٤) .

وعمل الدعوة لما كان أساسه الخير المتعدى فهو مقصود لذاته، وهو يندرج تحت باب المقاصد، **والمقاصد أعلى درجة من الوسائل في كل أحكام الشريعة**، لأنها مقصودة بالطلب الأول بينما غيرها من الوسائل مقصود بالطلب الثاني، والمقاصد حسنة لذاتها بخلاف الوسائل فهي حسنة لغيرها حسنة لما تؤول إليه وتحققه من مقاصدها، وقد بين ذلك ووضحه الإمام ابن الحاج في المدخل ص ٨٩ حيث قال: " وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ فاطر :٢٨.

ولا خلاف بين الأئمة في أن الخشية لله تعالى أفضل من الذكر باللسان، لأن الخشية لله تعالى هي المقصود والمطلوب ولا يُراد الذكر إلا لأجلها، وهي لا تحصل إلا للعلماء، لأنه عز وجل قال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ ﴾ وإنما للحصر على ما قاله النحويون، وقال تعالى ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٣) وأين هذا الخير كله وهذا

الفضل كله من الذكر باللسان ولا خلاف بين الأئمة في أن الخير المتعدى أفضل من الخير القاصر على المرء نفسه فبان أن هذا أفضل الذكر والقاعدة في ألفاظ صاحب الشريعة صلوات الله عليه وسلامه أن تحمل على ما هو أعم وأولى وأفضل". انتهى

أقول: قد بين رحمه الله تعالى أن الخشية لله تعالى وهي من باب المقاصد، أفضل من الذكر باللسان وهو من باب الوسائل، ثم وضح رحمه الله تعالى أن هذه الخشية لا تحصل إلا للعلماء، وهم قسمان علماء بأحكام الله تعالى والحلال والحرام، وعلماء بالله تعالى وبأسمائه وصفاته وعظمته وقيوميته وأيامه وعزته، ومن العلماء بالله تعالى في هذا القسم الثاني الدعاة إلى الله تعالى والمبلغين عن رسوله ﷺ وسلم الذين يدور عملهم على تعظيم الله عز وجل والدلالة على عزته وقيوميته أمام خلقه، والذين يبعثون الإيمان والخشية لله تعالى بدعوتهم هذه في أنفسهم وفي عموم البشرية والإنسانية...

وانظر إلى قول الإمام ابن الحاج "ولا خلاف بين الأئمة في أن الخير المتعدى أفضل من الخير القاصر على المرء نفسه فبان أن هذا أفضل الذكر والقاعدة في ألفاظ صاحب الشريعة صلوات الله وسلامه أن تحمل على ما هو أعم وأولى وأفضل". انتهى.

فأكد رحمه الله أن الخير المتعدى المقصود لذاته أفضل من الخير القاصر على المرء نفسه والمقصود لغيره، وأنه أفضل الذكر، تبعًا للقاعدة في ألفاظ صاحب الشريعة صلوات الله وسلامه عليه أن تحمل على ما هو أعم وأولى وأفضل.

وقد بين الإمام ابن الحاج في المدخل أيضا أن ذكر الله تعالى عند أمره ونهيه، أفضل من ذكره باللسان، فذكر الله عند مجالس الحلال والحرام، وذكره في المجالس التي تُعلم الأمة الأحكام، أفضل من ذكره باللسان، لأنها من الخير المتعدى، بخلاف الذكر باللسان فهو من الخير الذاتي، ولأن الذكر باللسان وحده ليس هو المقصود خاصة، بل إن المقصود هو أعم من ذلك وأشمل والذي يتمثل في معرفة الإيمان وأحكامه وفروعه، وتطبيق تلك الأحكام، سواء كانت هذه الأحكام أحكامًا عينية، يتعين على كل أحد معرفتها، ولا تُغني عين عن عين في آدائها، فكل أحد مطالب بها على سبيل التعيين، أم كانت هذه الأحكام فرائض كفاية وفعل البعض كاف في الإتيان بها، وإذا قام بها جماعة سقط عن الآخرين.

فقال رحمه الله تعالى في المدخل ج١ ص٨٧: "بل التصريح من الصحابي وهو أبو هريرة - رضي الله عنه - حين خرج إلى الناس بسوق المدينة فنادى فيهم ما بالكم ميراث رسول الله ﷺ يُقسَّم في المسجد بين أمته، وأنتم مشتغلون في الأسواق، فتركوا السوق وأتوا المسجد فوجدوا الناس حلقا حلقا، لتعليم القرآن والحديث والحلال

والحرام فقالوا: وأين ما ذكرت يا أبا هريرة قال: هذا ميراث نبيكم صلى الله عليه وسلم وأن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم وهاهو ذا أو كما قال، فقد بين هذا الصحابي رضي الله عنه المراد وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قال - عليه الصلاة والسلام - في حقه "**إن الله جعل الحق على لسان عُمر وقلبه**". وقالت الصحابة في حقه: ما كنا نرى إلا أن ملكا على لسانه ينطق، وأن ملكا معه يسدده: يا أيها الناس عليكم بالعلم فإن لله سبحانه رداءً يحبه، فمن طلب بابًا من العلم رداه الله عز وجل بردائه فإن أذنب استعتبه ثلاث مرات، لئلا يسلبه رداءه ذلك، وإن تطاول ذلك الذنب حتى يموت" فعلى هذا الكلام ذكر الله عند أمره ونهيه أفضل من ذكره باللسان.

ولأنه ليس المقصود والمراد الذكر باللسان خاصة، بل المقصود معرفة الإيمان وأحكامه وفروعه والمشي على تلك الأحكام، ويتعين عليه من ذلك ما يخصه في نفسه، من الأحكام التي هو محتاج إليها يتصرف فيها وبها، وما عدا ذلك يكون من باب فرض الكفاية، إن قام به فقد فضل له الأجر الكثير والثواب الجزيل، وإن يحجز عنه فقد أتى بما تعين عليه، فإذا حصل ذلك حينئذ يكون الذكر باللسان فرعًا عن هذا الأصل الذي حصل وهذا بين والله أعلم. انتهى كلام الإمام ابن الحاج

أقول: فانظر إلى قول الإمام ابن الحاج "فعلى هذا الكلام ذكر الله عند أمره ونهيه أفضل من ذكره باللسان ولأنه ليس المقصود والمراد الذكر باللسان خاصة بل المقصود معرفة الإيمان وأحكامه وفروعه والمشي على تلك الأحكام" **فإذا كان ليس المقصود والمراد الذكر باللسان خاصة بل المقصود معرفة الإيمان، فعمل الدعوة الذي هو الأساس لنشر وتحقيق هذا الإيمان، من أعلى المقاصد عند تفريغ الأوقات، لأنه من الخير المتعدى، المقصود لذاته، هذا الإيمان الذي ينبعث منه بعد ذلك ذكر اللسان وذكر القلب، وجميع أنواع الطاعات والقربات ...**

وقد أكد الإمام ابن الحاج المعاني السابقة الخاصة بالوسائل والمقاصد والخير الذاتي والخير المتعدى أيضًا في المدخل حيث قال: وروي عن أنس – رضي الله عنه – أنه قال :لأن أجلس مع قوم يذكرون الله سبحانه من غدوة إلى طلوع الشمس ..." وقال: هم يتحلقون الحلق ويتعلمون القرآن والفقه هذا تفسير خادم صاحب الشريعة – صلى الله عليه وسلم – فكيف يقابله تفسير متأخري هذا الزمان؟ **ورُوي عن إبراهيم النخعي – رحمه الله – أنه قال: لا يزال الفقيه يصلي قيل: وكيف ذلك قال: لا تلقاه إلا وذكر الله على لسانه يُحل حلالا ويُحرم حرامًا.**

قال الطرطوشي - رحمه الله- : وقد ظفرت بهذا المعنى في كتاب الله المهيمن قال الله تعالى لهارون وموسى لما بعثهما إلى فرعون ﴿ ولا تنيا في ذكري ﴾ (طه: ٤٢) فسمى تبليغ الرسالة ذكرًا فعلى هذا يتحقق أن حلق العلم وما يتحاورون فيه في العلم ويتراجعون من سؤال وجواب أنها حلق الذكر، وهذا قوله سبحانه ﴿فسألوا أهل الذكر﴾ (النحل: ٤٣) يعني أهل العلم والفقه) انتهى كلام الإمام الطرطوشي.

قلت: فانظر إلى قول الإمام الطرطوشي قال الله تعالى لهارون وموسى لما بعثهما إلى فرعون ﴿ ولا تنيا في ذكري ﴾ فسمى تبليغ الرسالة ذكرا" فإن كان الله تعالى قد سمى تبليغ الرسالة ذكرا، فيكون تبليغ الرسالة من أفضل الذكر لأنه من الخير المتعدى، ولأنه يندرج تحت باب المقاصد وأجل المقاصد أن يعبد الله عز وجل وحده لا شريك له، وهذا هو المنطلق الأساسي في عمل الدعوة وتبليغ الرسالة .

في نظام الأنبياء أولا الدعوة إلى الله تعالى والتعريف به، الدعوة إلى الله ماذا؟ هي أن يرى العبد الملك والمال والأراضي على أنها أشياء لا تنفع ولا تضر، النبي صلى الله عليه وسلم يأتي ويسأل ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ (المؤمنون:٨٨)

هذا يقولونه بألسنتهم ولكن عند الفعل يتبعون من ليس بيده شيء، **إذا سعت البشرية خطأ فهذه مسئولية الأمة.**

الدعوة إلى الله ما المقصود منها؟ المقصود منها أن يتوجه الناس إلى من بيده ملكوت كل شيء وإن كان لا يُرى "فأين تذهبون" تتوجهون إلى من ليس بيده ملكوت كل شيء ومعه الملك والمال لأنه يُرى ...
الدعوة إلى الله هي أن يسعى الناس إلى الخالق، ويفروا إليه لا إلى المخلوق "**ففروا إلى الله**".

الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء يُترك، ويتبع الناس المخلوق الذي ليس بيده شيء "فأين تذهبون" بسبب الدعوة يكون البيان لكيفية حياة الإنسان كإنسان.

فالمهم بعد الدعوة هو تغيير حياتنا، هذه المرحلة تكون فترة طويلة فأولاً تغيير الإيمان واليقين ثم العبادات، ثم هكذا المعاملات والمعاشرات تكون مطابقة لأمر الله تعالى.

الأنبياء كلهم أتوا بكلمة واحدة "**يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**" هذا على طريقة الدعاة، وليس على طريقة الوعاظ، الذين في كل يوم يأتون بكلام جديد وألفاظ جديدة ومعاني جديدة، **ففرق بين الواعظ والداعي، الواعظ كلامه متغير ومعانيه متغيرة، ويكون النقص عنده إذا أعاد كلامه مرة أخرى، بخلاف الداعي وكل الأنبياء فإن كلامهم كان واحدًا لا يتغير، وكلمتهم واحدة لا تتغير، أما الكلام من البعض على طريقة الوعظ المنمق المزخرف، فهذه شهوة كلام للمتكلم على وفق ما يصطنع من**

ألفاظ، وشهوة سماع عند السامع على وفق ما يسمع من كلمات، ونتيجة الشهوة في الكلام والسماع لا شيء، لذلك لا يفصل الله تعالى في هذه الشهوات من بعض المتكلمين والسامعين بالهداية والنصرة وتغيير الأحوال، بخلاف دعوة الأنبياء فكلامهم واحد، ولكن هذا الكلام الوحيد يكون مصحوبًا ببذل الجهد والتضحية، حتى تتحقق حقيقة هذه الكلمة في القلوب ويوقن بها الناس، هنا تكون الهداية من الله تعالى على وفق الجهد المبذول لتحقيق الإيمان ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩).

الله تعالى جعل لنا جهد الدين وأوامر الدين، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو الناس إلى لا إله إلا الله، وكان معه الاهتمام كيف يقوم الناس بالأعمال الصالحة، ويدعون الآخرين بالنيابة عنه إلى الأعمال الصالحة، وكيف يكون الجهد للإيمان مفتوحًا إلى يوم القيامة للقيام بالدعوة، على سبيل الوظيفة المستقلة، ونشرا للخير المتعدى...

الفرق بين جهد الدعوة وجهد العبادة

هناك فروق واضحة بين جهد الدعوة إلى الله تعالى وبين جهود العبادة، من حيث الأساس والأصول، والمنطلقات والركائز، وطبيعة العملين، ومن حيث الأهداف والثمرات والنتائج، فعمل الدعوة يندرج صاحبه تحت وصف العلماء، لأنه وظيفة النبوة، ولأن تبليغ الرسالة أفضل درجات الخير الدائم المتواصل، أما جهد العبادة فيندرج صاحبه تحت وصف العُباد، وفضل العالم على العابد معلوم مشاهد فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: ذُكر لرسول الله ﷺ رجلان، أحدهما عابد والآخر عالم فقال رسول الله ﷺ **"فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم" "إن الله عز وجل وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير"**[1].

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: "طلب العلم أفضل من صلاة النافلة" .

والعلم أفضل من المال بسبعة أوجه بينها الإمام الرازي في مفاتيح الغيب ج٢ ص٤٠٣: قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "العلم أفضل من المال بسبعة أوجه: أولها العلم ميراث الأنبياء، والمال ميراث الفراعنة. الثاني: العلم لا ينقص بالنفقة والمال ينقص.

---

(١) رواه الترمذي ج٧ (٤٥٦- ٤٥٧) باب "ما جاء في فضل العلم على العبادة" وقال حديث حسن صحيح، والدارمي، وذكره المنذري في التغريب والترهيب (١٠١/١).

والثالث: يحتاج المال إلى الحافظ والعلم يحفظ صاحبه. والرابع إذا مات الرجل يبقى ماله والعلم يدخل مع صاحبه قبره. والخامس المال يحصل للمؤمن والكافر والعلم لا يحصل إلا للمؤمن. السادس: جميع الناس يحتاجون إلى صاحب العلم في أمر دينهم ولا يحتاجون إلى صاحب المال. السابع: العلم يقوي الرجل على المرور على الصراط والمال يمنعه.

وفي فضل العلم وخيره المتعدي قال الحسن البصري: "صرير قلم العلماء تسبيح، وكتابة العلم والنظر فيه عبادة، وإذا أصاب من هذا المداد ثوبه أصابه فكأنما أصابه دم الشهداء، وإذا قطر منها على الأرض تلألأ نوره، وإذا قام من قبره نظر إليه أهل الجمع فيقال هذا عبد من عباد الله أكرمه الله".

فالعالم لا يتوقف خيره وعمله على وجوده، بل هو من الثلاثة الذين إذا ماتوا لا ينقطع عملهم "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له"(١) أما العابد فإذا مات انقطع معه عمله .

والنبي ﷺ عندما خرج على أصحابه وفيهم حلقة للذكر وحلقة للتعليم جلس مع حلقة التعليم، وقال إنما بُعِثت معلما، هذا لأن الأجر في حلقة الذكر يقع تحت وصف الخير الذاتي

---

(١) رواه مسلم في الوصية (١٦٣١)، والترمذي في الأحكام (١٣٧٦) والنسائي في الوصايا (٣٥١)، وأبو داود فيء الوصايا (٢٨٨٠) وأحمد (٣٧٢/٢).

المتعلق بصاحبه، أما الأجر في حلقة التعليم فيقع تحت وصف الخير المتعدي، الذي يتعدى من صاحبه إلى الغير فيشمل عموم أمة النبي صلى الله عليه وسلم، ويدخل في هذا الفضل حلقات التعليم والتعلم في جهد الدعوة، بل إن الخير في حلقات التعليم هذه يتعدى إلى عموم البشرية والإنسانية، لأنه هو الذي يقيم مقاصد الدين للناس كافة.

وقد بين الإمام الرازي رحمه الله في مفاتيح الغيب ج٢ ص٤٠٣ فضل حلقات التعليم وخيرها المتعدي وذلك بقوله: قال الفقيه أبو الليث: إن من يجلس عند العالم ولا يقدر أن يحفظ من ذلك العلم شيئًا فله سبع كرامات:

أولها: ينال فضل المتعلمين.

والثاني: ما دام جالسًا عنده كان محبوسًا عن الذنوب.

والثالث: إذا خرج من منزله طلبًا للعلم نزلت الرحمة عليه.

والرابع: إذا جلس في حلقة العلم فإذا نزلت الرحمة عليهم حصل له منها نصيب.

والخامس: ما دام يكون في الاستماع تكتب له طاعة.

والسادس: إذا استمع ولم يفهم ضاق قلبه لحرمانه عن إدراك العلم فيصير ذلك الغم وسيلة له إلى حضرة الله تعالى لقوله عز وجل "أنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلي".

والسابع: يرى إعزاز المسلمين للعالم وإزلالهم للفساق فيردُّ قلبه عن الفسق ويميل طبعه إلى العلم فلهذا أمر عليه الصلاة والسلام بمجالسة الصالحين.

وأخرج الطبراني بإسناده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ "قليل العلم خير من كثير من العبادة"(١).
والدعوة إلى الله تعالى هي أصل كل العلوم، فمن الدعوة جميع العلوم انبثقت، كالفقه والتفسير والسيرة والعقيدة والتوحيد وغيرها، فعلى هذا فقليل الدعوة فيها خير كثير، لأن الدعوة فيها العلم بالله تعالى ومعرفته وتعظيمه وتقديسه والإشارة إليه، وطلبه وحده والتوجه إليه لا إلى سواه، وحقيقة التوكل عليه، والاستعانة والاستغاثة به، وهو العلم الأقصى الحسن لذاته لا لغيره، والمطلوب بالطلب الأول لا بالطلب الثاني، وهو مقصود بعثة الرسل وإنزال الكتب وثمرة كل العلوم.

وخرج الطبراني بإسناد لا بأس به عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان له كأجر حاج تامة حجته"(٢)

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال أبو نعيم غريب من حديث رجاء: تفرد به إسحاق بن أسيد ولم يروه عن رجاء إلا ابنه.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١١١/٨. قال الهيثمي في المجمع ١٢٣/١: أخرجه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون كلهم.

وهذا هو وصف أهل الدعوة في خروجهم في سبيل الله تعالى في المساجد، حيث ينزلون ويغدون إلى المساجد لا يريدون إلا أن يتعلموا خيرا أو يُعلموا خيرا، فأجزل الله تعالى ثوابهم وبشرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأجر حاج تاما حجته.

وأخرج أبو القاسم الأصبهاني في كتاب الترغيب والترهيب بإسناده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ "**يُبعث العالم والعابد فيقال للعابد أدخل الجنة ويُقال للعالم قف حتى تشفع للناس**"(١).

وعمل الدعوة أساسه وأصله الافتقار إلى الله تعالى، فنحن نخرج في سبيل الله تعالى لإصلاح خاصة أنفسنا بالاستقامة على أمر الله تعالى وسنة النبي صلى الله عليه وسلم المشرفة ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (هود: ١١٢)

لأننا إذا اجتهدنا في عمل الدعوة من أجل إصلاح الآخرين فقط، هم يفوزون ونحن نخسر، فلابد أن تكون نيتنا المصاحبة لنا في عمل الدعوة وهذا الجهد أننا نعمل من أجل خاصة أنفسنا، ولمنفعة ذواتنا، أما إذا اجتهدنا في الدعوة إلى الله تعالى بنية إصلاح الآخرين، فإذا لم نتحصل على النتائج معهم تتوقف جهودنا.

فنحن نجتهد في الدعوة مع الخوف والوجل ورؤية قصور النفس، وعدم صلاحيتها وأهليتها، ومع تمام الانخفاض والانطراح أمام باب الله الجليل طلبًا للعطاء والمنة، فأصل الغنى تمام الفقر، وإذا

---

(١) أخرجه أبو القاسم الأصبهاني في تاب الترغيب والترهيب ٢/٨٧١.

أردت العطاء فكن كلك فقراء، ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ (التوبة: ٦٠).

وقد مر عيسى بن مريم عليه السلام على ملأ من بني إسرائيل فقال لهم **"يا بني إسرائيل أين ينبت الزرع قالوا يا روح الله ينبت في التراب قال الحق أقول لكم لا تنبت الحكمة إلا في قلب مثل التراب"**.

ولا يكون الداعي محققًا لمقاصد الدعوة حتى يكون أخفض الناس لأمة النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾. ولو حرف امتناع لامتناع فممتنع أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم فظا غليظ حاشاه صلى الله عليه وسلم وكلا وهو الرؤوف الرحيم وممتنع أن ينفض الناس عنه فإن كانت صفات العلو والتعظم، يكون من ثمراتها الانفضاض والانفصال، فصفات التواضع والرفق واللين، وعدم رؤية النفس وتهوين أمرها وافتقارها يكون معها الإقبال والتلاحم والتواصل، ولأن التراب أخفض شيء فكل شيء يسير فوقه ويطأه، وهو يحمل كل شيء فوقه، **كذلك الداعي إلى الله كل الناس تمر فوقه لتصل إلى ربها، وهو يحمل كل الناس على ظهره لقصد نجاتها.**

هذا جهد الدعوة الذي منطلقه وأساسه الافتقار والتواضع وغمط النفس، وإرجاع الفضل إلى الله تعالى وعطائه ومنته في أصل الأعمال، وما أجمل للإنسان أن يقول وهو يفتقر ويتواضع ويتضرع إلى ربه ومحبوبه ومولاه: **"أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني، أسألك**

بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك. هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير. وليس لي سيد سواك. لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك. أسألك مسألة المسكين. وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل. وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبه".

وقد روي عن النبي ﷺ عند عودته من الطائف مفتقرا ومتواضعا لربه ومعلما لأمته، حتى يكون التذلل دربها، والتواضع واللين لسانها، والانطراح على باب الجليل العظيم سبيلها وطريقها، **"اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس أنت ربي ورب المستضعفين إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملَّكته أمري إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بي سخطك أو يحل عليَّ غضبك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك"[١].**

حتى في حال النصر والفتح المبين لمكة شرفها الله تعالى، عندما دخلها النبي ﷺ وسلم فاتحًا في عشرة آلاف مقاتل لم يُر مثلهم، دخلها عليه السلام حانيا ظهره الشريف، خافضًا لرأسه الشريف حتى كاد يمس ظهر راحلته، تواضعًا وافتقارًا لربه واعترافا بفضله لاهجا

---

(١) رواه الطبراني في الكبير، وابن جرير في التاريخ، وابن سعد في الطبقات.

بذكره قائلاً "**لا إله إلا الله وحده نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده**" فالنصرة من الله والعزة من الله ونحن لنا التواضع والافتقار في الدعوة إليه ومن تتبع تواضع النبي ﷺ وافتقاره عند تبليغ دعوته ورسالته قد لا يستطيع إحصاءه.

أما جهد العبادة فقد يتحول مع بعض السائرين فيه إلى إحساس زائد بالنفس، فيرى نفسه في أعماله، ويرى نفسه في كلامه وأقواله، ويرى نفسه في طاعته وأذكاره، وقد يسعى البعض السعي الدؤب للتركيز على نورانية الذات، والبحث عنها في عيون الناظرين وآذان السامعين، وقصد العاملين المجتهدين، ويؤمن أنها الأساس في إصلاح العباد ببركتها وزكاتها، وتتعاظم نفسه حتى يُحقر من حوله ومن أمامه، خاصة إذا رأى منهم مخالفة أو وجدهم على معصية فيسفه حالهم ويعيب أعمالهم ويصول عليه.

وفي الترمذي "**لا تظهر الشماتة بأخيك فيرحمه الله ويبتليك**"(١).

لأن تعييره بالذنب أشد إثمًا من الذنب، لما فيه من صولة الطاعة والعجب بالنفس وشكرها، والإيحاء بكونها معصومة عن الوقوع في مثله، وهذا من جهله بنفسه وهذا قد يقع فيه بعض العباد عند اجتهادهم في العبادة، فيسيئون إلى الخلق ويقطعونهم عن الخالق،

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه في أبواب صفة القيامة ج٧، والطبراني ٢٢/ (١٢٧) من طريق حفص بن غياث به وقال هذا حديث حسن غريب، وابن أبي الدنيا، ورواه أبو نعيم في الحلية.

وتلتهب النظرات إلى العصاة شذرا، وتنطلق الكلمات للشاردين والحائرين جلدا ونبذا، ومن وثق بنفسه أوردته المهالك، وقد أخبرت امرأة العزيز عن نفسها بعد ما خبرت أحوالها ومفاسدها ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ (يوسف: ٥٣). فصولة الطاعة والتكثر بها، والمنة والإدلال بأحوالها على الخلق، هي من الآفات المهلكة، التي يخشى أن تصيب بعض من اقتصر على جهد العبادة، وحده في سيرة لربه وطاعته لمولاه.

والنبي صلى الله عليه وسلم قال "**إذا زنت أمة أحدكم فليقم عليها الحد ولا يثرب**"[1] أي لا يعير، لأن القلوب بيد علام الغيوب، وليس من البشر أحد معصوم عن المعصية إلا الأنبياء، وقد كان دعاء النبي صلى الله عليه وسلم تعليما لأمته "**اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك**"[2].

وهو أكمل الخلق وأثبت الناس قلبا في رضى مولاه، وقد دعا النبي ﷺ بهذا الدعاء برهاناً للناظرين، وهو الداعي الأول المتبوع من أمته، في كمال شفقته ورحمته على العصاة والمذنبين، ولينه مع الجناة، وافتقاره وذله وتواضعه لسيده، الذي اختاره وبعثه وزكاه.

---

(١) رواه الإمام البخاري في البيوع باب بيع المدبر ج٤ ص٤٢١، والإمام مسلم في الحدود باب "رجب اليهود أهل الذمة في الزنا"، والترمذي ح ١٤٣٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه ح ١٩٩، وأخرجه أحمد في المسند ١٨٢/٤، والحاكم في المستدرك ٣٢١/٤ وقال صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي.

وتعليمًا لأمته أن تتضرع إلى الله في الثبات على دينه وأداء طاعته، لأن ذلك لا يتم إلا بتوفيقه، ولا يتوصل عليه إلا بإعانته والافتقار إليه، وقد قال الله تعالى لحبيبه المصطفى ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٤). وقال النبي الكريم يوسف عليه السلام ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف: ٣٣).

وقد قال الخليل عليه السلام متحدثًا عن منن الله عليه ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) ﴾ (الشعراء: ٨٥).

فرد الأمر كله إلى الله تعالى في طعامه وشرابه، ومرضه وشفائه وموته وحياته، وتواضع لله تعالى طلبًا لغفران خطاياه، وهو المعصوم عليه السلام، وتضرع إلى ربه في أن يلحقه بأهل الصلاح والتقوى، وأن يجعله منهم، وأن يجعل له الثناء الحسن في الآخرة، وأن يجعله من أهل كرامته الوارثين لجنته، كل ذلك يضيف الجعل له سبحانه وحده﴿ **واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم**﴾ تذللا وضراعة، وتواضعًا وافتقارًا، واعترافًا بالمنة والفضل من صاحب العطايا والإنعام، وواهب نعمة الإيجاد والإمداد سبحانه وحده لا شريك له.

ومن الفروق الواضحة بين جهد الدعوة وجهد العبادة، أن جهد العبادة أساسه الخصوص لا العموم، فليس كل أحد مؤهل لاستقبال الواردات النورانية عند صفاء النفس وصقلها بالطاعة، ولا كل أحد مؤهل لتحمل الأوراد الكثيرة، والعبادات الشاقة، والتقلل من رغبات النفس وشهواتها، والعزلة والانقطاع عن الناس، كما قالوا لأن في مخالطتهم محاذير ومفاسد، هكذا زعموا أن الخلطة مع الناس محفوفة بالمخاطر، فجهد العبادة أساسه الخصوص، لذلك لم يكن مناسبًا لعموم وبسطاء الأمة الآن للسير على مقتضاه، والتحصل على صحة أصوله، والتزكية والتربية الصحيحة من خلاله، فمن كل ألف عابد قد لا يصح في هذا الطريق، والوصول إلى غايته وثمرته إلا واحد، أو أفراد قليلة، وهذا لا يناسب عموم الأمة...

لذلك كان عمل الدعوة هو الأنفع والأتم لعامة أمة النبي ﷺ، فرجحه مشايخ وعلماء الدعوة وأرشدوا إليه، وفضلوه لعموم الأمة على جهد العبادة، مع كونهم هم أهل التربية والتزكية، ومن أكمل الناس في علم الإحسان وحقائق العبودية، وقد كان لأغلبهم الترتيب التام في الأذكار والأوراد، التي توارثوها عن آبائهم وأجدادهم وعلمائهم، ولهم القدم الراسخة فيها، لكنهم عندما نظروا إلى الأنفع للأمة، والأنسب لعمومها، رجحوا واختاروا لها عمل الدعوة والخروج في سبيل الله، لأنهم رأوا أن من كل ألف مسلم، قد يستطيع تسعمائة وخمسون فردًا السير إلى الله على مقتضاه، والامتثال

لأوامر الله وتعظيم طاعته، وهي نسبة كبيرة جديرة بالمحافظة عليها وتقديمها، بالمقابلة لنسبة جهد العبادة، التي لا تنتهي في الغالب في ثمراتها، بالنسبة لعموم الأمة، إلا إلى أفراد قلائل، الذين تجتمع فيهم صفة كمال التزكية والتربية وصفة الإحسان، لذلك رأى العلماء والمشايخ أن عمل الدعوة هو السبيل لنجاة الأمة، وهو الأحق والأصلح لزكاتها، أما جهد العبادة فلا يتأهل منه إلا القليل لصعوبته على العامة والبسطاء، وخصوصيته فلا تستطيع العامة أن تتحمله.

ولقد كان جهد الدعوة أساسه العموم لكل أمة النبي ﷺ، لأن كل واحد من الأمة مؤهل ومسئول عن القيام به للحاجة الماسة إليه وذلك بالخطاب العام للأمة من رسولها صلى الله عليه وسلم حيث قال "**بلغوا عني ولو آية**"[١]

"**ليبلغ الشاهد منكم الغائب**"[٢] "**نضر الله امرءا سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع**"[٣].

---

(١) رواه الترمذي كتاب العلم، ورواه الإمام أحمد في المسند ج٢ ص١٥٩، ورواه الدارمي في سننه ج١، ورواه في كنز العمال ج١٠.

(٢) رواه البخاري ج١ "باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب"، ورواه مسلم كتاب القسامة ج٢ ص٤٢ "باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال".

(٣) أخرجه أبو داود في السنن ج٣، وأخرجه الترمذي في السنن ج٥ كتاب العلم قال الإمام الترمذي حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن حبان.

ولأمر الله عز وجل لرسوله وحبيبه صلى الله عليه وسلم أن يقول ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: ١٠٨) فكل اتباع النبي صلى الله عليه وسلم من أمته مأمورون بالسير وراءه في سبيله، دعوة إلى الله تعالى على بصيرة وحكمة، وتعظيما للخالق سبحانه وتعالى في أسماع المخلوقين، كي لا يعظموا غيره ولا يطلبوا غيره، ولا يعبدوا ربا سواه، كل بحسبه، العالم بما وهبه الله تعالى من الكتاب والحكمة، وغير العالم من عموم الأمة بالكلام على الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة فكل الأمة علماء بها، كما ذكر ذلك الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرح صحيح مسلم **(باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، عند شرح الحديث [من رأى منكم منكرًا فليغيره]** [(١)] .

حيث قال رحمه الله "ثم إنه يأمر وينهى من كان عالمًا بما يأمر به وينهى عنه وذلك يختلف باختلاف الشيء فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها فكل المسلمين علماء بها وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال ومما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام مدخل فيه ولا

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ج١ كتاب الإيمان "باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان"، وأخرجه النسائي في سننه ج٨.

لهم إنكاره بل ذلك للعلماء" انتهى كلام الإمام النووي.

ومن الفروق بين جهد الدعوة وغيره من الجهود أن عمل الدعوة إلى الله تعالى حكمه الوجوب، إما على سبيل الوجوب العيني على كل أحد، فلا تغني عين عن عين في أدائه، وإما على سبيل الوجوب الكفائي إذا قام به مجموعة سقط عن الباقين، أي أن فعل البعض كافي في الإتيان به.

أما الجهود الشخصية مثلاً فحكمها الندب والاستحباب، وهو ما يمدح فاعله ولا يذم تاركه، وإذا اجتمع جهد الدعوة الذي حكمه الوجوب، والجهد الشخصي الذي حكمه الندب والاستحباب في وقت واحد، فالأولى ما ذكره أئمة الأصول في ذلك حيث قالوا: "إذا اجتمع الواجب والمندوب في الوقت المعين فالمندوب لا يسمى مندوبًا في هذا الوقت بل يُسمى واجب الترك حيث أن الواجب لن يتحقق إلا بتركه وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب".

ومن الفروق بين جهد الدعوة وجهد العبادة، أن في جهد الدعوة الداعي يتكلم عن الله عز وجل وحده، وهذا الخليل عليه الصلاة والتسليم يتكلم عن ربه ردا على من حاجه فيه، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

أما في جهد العبادة فبعض العباد قد يتكلم عن شيخه أو عن نفسه أو عن أصحابه.

كذلك في جهد الدعوة الداعي يُعظم الله وحده، فهذا الداعي الأول خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم يبين له مولاه عز وجل، أساس الجهد في دعوته وهو تعظيمه وحده لا سواه، وذلك بأمره تعالى له بتمام التعظيم والتكبير لقيوميته وقدرته وعزته ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (الإسراء: ١١١).

أما في جهد العبادة فبعض العباد قد يعظم نفسه أو طاعته أو أعماله ..

وفي جهد الدعوة الداعي يشير ويتوجه إلى الله تعالى وحده، وهذا سيد المرسلين يوجهه ربه إليه ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤).

أما في جهد العبادة فبعض العباد قد يشير إلى نفسه أو إلى أعماله ، وهو الإحساس الزائد بالنفس، عند رؤيتها والتأثر بها، ونريد أن نقرر حقيقة ثابتة أن هذا قد يحدث من البعض لا من الكل، ولا ننكر أن هنالك ممن يجتهدون فى باب العبادة، من لهم مقصد الدعوة والهداية والرحمة للعالمين، وليست عندهم هذه الممارسات، بل هم على الغاية من العرفان وحقائق الإيمان..

كذلك في جهد الدعوة الداعي كلما ازداد في دعوته، رسخ عنده وتقرر وتأكد اليقين إلى ما يدعو إليه، وهو كل ما يتعلق بالخالق وحده لا شريك له، أما في جهد العبادة فبعض العباد قد ينظر إلى عابد مثله، أو يتعلق بمخلوق مثله لا ينفع ولا يضر.

كذلك من الفروق بين جهد الدعوة وجهد العبادة أن جهد العبادة ليس فيه مجاهدة عمل الدعوة، في الدلالة على الخالق ونصح المسلمين، حيث يجتهد الإنسان في جهد العبادة فقط على نفسه لا على الآخرين، وقد أخذ بعض الدعاة جهد العبادة كمهرب من جهد الدعوة لكراهته وصعوبته على النفس، التي تجبر فيه على الكلام عن الله تعالى وتعظيمه، وحسن اتباع رسوله ﷺ، ونشر دينه، وكل ذلك مما يخالف هواها وطبعها، ويثقل عليها في سرها وعلانيتها...

ومن الفروق بين جهد الدعوة وجهد العبادة، أن جهد الدعوة حفظ في بدايته ونهايته بالأصول الصحيحة التي التزم بها العلماء والمشايخ، وعموم من انتسب إليه، وأعظم هذه الأصول المحافظة التامة على اتباع الوحيين الكتاب والسنة، فلم يتطرق إلى عمل الدعوة أي شوائب بدعية، أو مخالفة شرعية في وسائله أو مقاصده، لأجل ذلك كان المحافظة على أصول عمل التبليغ وآدابه هو السبيل الأرحب للتربية والتزكية.

هذا بخلاف جهد العبادة من البعض، الذي تطرق إليه الكثير من المخالفات، في الوسائل والممارسات والإصطلاحات، مما جعل الكثير من الأئمة المحققين يتبرأون من بعض هذه الممارسات، أو الأحوال المخالفة للسنة والمضادة لأحكامها، والبعيدة عنها...

في عمل الدعوة الناس تترقى بسبب الأعمال لا الأشخاص

وعمل الدعوة.. الناس تترقى فيه بسبب الأعمال لا الأشخاص، وكم من الناس لم يروا كبار المشايخ من أهل الدعوة، ولم يخرجوا أو يسافروا إلى الهند التي جعلها الله تعالى أساس انبعاث هذه الدعوة المباركة، ومع ذلك يتحلون بالصفات الإيمانية العالية، ويجتهدون في عمل الدعوة...

فالارتباط. بالأعمال هو سبب الترقي، لا الالتقاء بأشخاص معينين أو التواجد في أماكن معينة، على أننا نؤكد أن اهتمامنا، واهتمام جميع المشايخ وعلماء الدعوة، بارتباط عوام وبسطاء الدعوة بهم، وذلك بالسفر إليهم في بلادهم والالتقاء معهم، ومصاحبتهم وتعميق الصلة بهم، وتأكيد هذه الصلة، **إنما هو ضمان لسلامة خطواتهم على الأسس العلمية اللازمة لإيصال هذه الدعوة، إلى عموم البشرية وسائر الإنسانية، بحيث لا يشذ منهم شاذ عن أصولها، أو يخالف أي أحد في قواعدها، ولتتم المراجعة في كل وقت بين كل منتسب إلى هذه الدعوة المباركة، وأسسها وأصولها، المتمثلة في إرشادات وتوصيات علمائها ومشايخها، في البلاد التي انبعثت منها ونبغت فيها**، ففي كل مكان هنالك رجاله المتخصصون في علم من العلوم، وطالب هذا العلم يتوجه إلى من تخصص فيه، فمثلا الذين يدرسون الآن في الأزهر الشريف من كل أنحاء الدنيا، لا نقول أن "قبلتهم الأزهر" بل هم أتوا للعلماء الذين في الأزهر، والذين بسببهم يجعلهم الله تعالى وسيلة لتحصلهم على هذا العلم المنشود، بطريق صحيح غير مدخول....

كذلك أهل الدعوة وبسطاؤها، عندما يتوجهون إلى الهند أو باكستان لا ندعي عليهم ونلمزهم بقولنا "الهند قبلتهم"، بل هم ذهبوا إلى الهند، الموجود فيها المشايخ والعلماء المتخصصون في الدعوة، والذين جعلهم الله سببا لنشر الخير في أمة النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا ما قلنا نذهب للمشايخ، فلهذه النسبة التي في قلوبهم بالرحمة على الأمة، ومعرفة أسباب رفعتها، لأنه بسبب نياتهم ومقاصدهم، وجهدهم واجتهادهم في هذا العمل المبارك، ارتفع اليأس من عدم انتشار الأعمال الصالحة، وبرزت أعمال الهداية في أمة النبي صلى الله عليه وسلم، لذلك كانت عبارة الكثير من علماء ومشايخ الدعوة في الهند هي أننا لا نريد الناس أن يأتوا إلينا، وإنما نريدهم أن يأتوا إلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته، وأن يقيموا أعمال مسجد النبوة وصفات الصحابة الكرام رضي الله عنهم جميعًا في أنفسهم وفي عموم الأمة...

من أجل الدين الإنسان يترقى إلى الدرجات العلى في الجنة على قدر جهده في الدنيا ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ (الإسراء: ١٩).

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم "من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة"[١].

قال النبي صلى الله عليه وسلم "**من جعل الهموم هما واحدا كفاه الله هم دنياه ومن تشعبته الهموم لم يبالي الله في أي أودية الدنيا هلك**"[٢].

فإذا انحصر فكر الإنسان في شيء واحد، وهو فكر الآخرة فوعد الله سبحانه وتعالى أن يخلصه من هموم الدنيا، أما إذا تشعبت أفكاره فإنه يخرج منها بدون فائدة لتشعب الأفكار، وأما إذا جعل الإنسان مقصد حياته الآخرة فيكون كل جهده للآخرة، وعندما فعل الصحابة ذلك حصلوا على طمأنينة لا يحصل عليها الملوك، فيجب أن يكون العبد دائمًا متفكرًا في ربه وكيف يكون الله راضيا عنه، ويكون دائمًا خائفًا من ارتكاب معصية تغضب الله تعالى، فإذا كان هم الآخرة موجودًا في القلب ينجو العبد من هموم الدنيا وآلامها ومن عذاب القبر وفي الآخرة يكون فوزه في جنات النعيم.

---

(١) رواه الترمذي في سننه ج٤ ص ٥٧١.

(٢) أخرجه البيهقي في الآداب، والحاكم في المستدرك ج٤ ص ٣٢٩ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

إن الإنسان إذا لم يقض حياته على مقصده فإن الله وهو خالق الإنسان ورازقه يجعل حياته دائمًا في حيرة وضيق من كل شيء، وتكون حياته وبالاً ومصائب تزداد عليه، ولا تنقضي هذه المصائب لأن سبب الاضطرابات والمشاكل في هذه الدنيا، هو بُعد الإنسان عن المقصد الذي خُلق من أجله، وليس هناك حل إلا بعد الرجوع إلى مقصد هذه الحياة، وأن خالق هذا الإنسان هو الذي عين له المقصد، الله تبارك وتعالى يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿ **وما** وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٢٥) فليس هناك من يستحق حب العبد مثل الله سبحانه وتعالى، وكم من آية تأمر بالعبودية، ومحبة الله فوق كل شيء، وهذه العبودية هي كمال الخضوع والمحبة والطاعة لله تعالى، وأن يضحي الإنسان بكل شيء يتعارض مع أوامر الله تعالى مهما عظم شأنه، هذه التضحية في ذاتها هي حقيقة العبودية، **الجنة خرجت من قلوبنا وتزداد خروجًا يومًا بعد يوم، وإن أهم ما تحتاج إليه الإنسانية هي هذه الصفة. صفة العبودية...**

وقد كان عند الصحابة رضي الله عنهم حقيقة الدعوة التي نشأ عنها حقيقة العبودية، فكان الكفار يدخلون في الدين أفواجًا، فلو كان عندنا حقيقة الدعوة لما كان على الأرض غير مسلم، فنحن لا نربط الأشخاص بالأشخاص، ولكن نربط الأشخاص بالأعمال، أحد كبار المسئولين في الدعوة أخبرني: أن الشيخ عمر بالمبوري رحمه الله

عندما ذهب في أول جماعة للخروج في سبيل الله إلى المغرب، قابل الشيخ حمداوي المغربي رحمه الله تعالى واجتهد عليه ليخرج معهم، فوافق وخرج معهم مدة طويلة ثم عند عودتهم ذهب معهم إلى الهند، فقابل الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي، فقال له الشيخ حمداوي: الآن الدين يتجدد بالشيخ إلياس وبك وبالشيخ إنعام فقال له الشيخ يوسف: **دعك من هذا الكلام والمهم لنا أن نجتهد فقط في هذا الجهد وفي عمل الدعوة".**

أقول: فوجه الشيخ يوسف الشيخ حمداوي إلى المعتبر في عمل الدعوة وهو الأعمال والاجتهاد فيها لا الأشخاص، وأن أساس الترقي في عمل الدعوة والاستفادة منه، هو في الحرص على الأعمال والاهتمام التام بها لا النظر إلى الأشخاص، وأن في الأعمال تزكية النفس وتربيتها وتنورها، وأثر الأعمال في حصول هذه التزكية أعظم بكثير من الارتباط بالأشخاص، أو الاهتمام بالأشخاص، وذكر لي أحد المشايخ والمسئولين الكبار في عمل الدعوة في بلد أفريقي أنه دخل على الشيخ إنعام وقال له: " **يا شيخ ما حصّلنا نصيبنا في خدمتك فأجابه الشيخ إنعام: "ارتباطكم واهتمامكم بالعمل الجماعي أحب إلي من خدمتي وارتباطكم بالعمل الجماعي هذا هو خدمتي" انتهى.**

أقول: فأحب الشيخ إنعام أعمال مسجد النبوة وأعمال الدعوة، وقدَّمها على الاتصال به والارتباط به وخدمته، وربط من توجه إليه وإلى شخصه إلى التوجه إلى الأعمال والارتباط بالأعمال، **ورأى الشيخ إنعام أن الهداية والاستقامة والتزكية والتربية، إنما هي في الاهتمام بالأعمال لا بالأشخاص، وتحصيل ذلك إنما يكون بالارتباط بأعمال مسجد النبوة والمحافظة عليها، والتي بها تتنور نفوس أصحابها، ويجعلها الله تعالى سببًا لهم للحصول على الهداية.**

أي أننا لا نرتبط في عمل الدعوة بالأشخاص ولكن بالأعمال، والذي يخلف النبي صلى الله عليه وسلم في أمته هو الجهد على منهجه وسنته، فشيخنا وقدوتنا أعمال مسجد النبوة المفضية إلى الهداية...

فاهتمام المشايخ حفظهم الله تعالى بارتباط عوام وبسطاء الدعوة بهم وبعلمائها، إنما هو لهذه النسبة، وكونهم الأدلاء لهم في قيامهم بأعمال هذه الدعوة المباركة للوصول إلى محبة الله ورضوانه، وإلى حقيقة دينه، وهي وظيفة العلماء في كل علم من العلوم، بالنسبة للراغبين فيه والطالبين له، ومهما كان الكبير والسابق في هذا العمل، محترمًا ومعظما في قلوب الناس، وأنه يأخذ بمجامع قلوبهم وعقولهم إذا ما تكلم، إلا أن هذا التأثير والاحترام، إنما جعله الله تعالى لنسبته إلى هذا العمل المبارك، بنياته ومقاصده، التي هي من خلاصة دعوة النبوة والرسالة، وهو ما أُكرم وما اُحترم، إلا لعظمة دعوة النبوة في قلبه وقلوب

المبلغين، لا لسحر كلامه أو جزالة ألفاظه، ولا تأتي فرصة أمام المشايخ الكرام لتوضيح هذا الأصل، وتأكيد هذا المعنى، إلا وانتهزت منهم...

على سبيل المثال هذه الواقعة التي حدثت مع إمام وعالم كبير في هذه الدعوة، وهو الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي حيث كان في أحد الاجتماعات، وكان منفردًا في غرفة، فدخل عليه أحد القدماء من أهل الدعوة وهو لا يعلم بوجوده، فلما رأى هذا العالم الكبير وهو الشيخ يوسف اندهش وقال "حضرت جي" أي السيد المطاع أو المبجل، فسأله الشيخ رحمه الله: من "حضرت جي"؟، فقال له: أنت..

فقال الشيخ يوسف رحمه الله: "لا" إنما حضرت جي هو هذا العمل المبارك، أي أن تعلقنا واهتمامنا وتعظيمنا إنما هو لهذه الأعمال ولدعوة النبوة، وطاعتنا وامتثالنا هو لأوامر سنة النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله ....

فهذا الإكرام والتوقير الذي يكون مع القائمين للدعوة، إنما هو إكرام وتوقير هذا العمل، وإكرام نسبتنا إليه وليس لأشخاصنا ولا لذواتنا، وذلك بخلاف بعض جهود الآخرين التي تعظم الأشخاص لذواتهم...

يقول الشيخ سيعد أحمد خان رحمه الله: "نحن نطهر أذهاننا من العصبية وإذا أكرمنا أحد فهذا الإكرام ليس لنا ولا لأشخاصنا ولكن للجهد وإذا بقينا في الجهد نكرم بسبب الجهد فليس لنا في أنفسنا أية حيثية، فبالجهد أُكرمنا، وبالجهد وأعمال الدعوة أُستمع إلينا، ووُسع لنا في المجالس، لا لذواتنا ولا لأسمائنا، ولا لأي نسبة لنا، أو صلاحية ذاتية ولكن لبركة الجهد وأعمال مسجد النبوة.

فالمشايخ الكرام رحمهم الله تعالى ما ربطوا أحدًا بأشخاصهم ولا ذواتهم، وإنما ربطوا الناس بالأعمال وصفات الإيمان، وتحقيقها في عموم الأمة، وكانوا ضد تشكيل الناس على أي شخص كان...

وذلك لأن ارتباط الإنسان بأعمال الدعوة يجعله موصوفًا بوصف الداعي إلى الله، ويجعل درجته درجة الداعي إلى الله، ويجعله مندرجًا تحت وظائف النبوة، فالدعوة إلى الله تعالى وظيفة الأنبياء، والقائم على وظائفها ونياتها ومقاصدها من دلالة الخلق على الخالق، وإحياء العبودية في عموم البشرية والإنسانية لبارئها وخالقها، هو قائم على وظائف ونيات الأنبياء، وهذه أعلى وأجل أوصاف الإنسانية، وليس لأي شخص كان أن يداني من وصل إلى درجاتها أو رتبتها، إن كان بعيدًا عن تحمل هذه المسئولية وأداء تلك الوظيفة وفقًا لهذه المقاصد الشريفة.

بل من الأمور الأربعة التي يخرج بها المبلغ في سبيل الله تعالى هو الافتقار إلى الله عز وجل، وعدم النظر إلى المخلوق، أيًا كان هذا المخلوق...

فبركة الذات كانت مع النبي صلى الله عليه وسلم، كذلك النصرة والبركة هي نصرة وبركة ذاته الشريفة المباركة، أما ما نراه نحن أحيانًا أثناء الدعوة، فبركة انتسابنا لهذا العمل ولدعوة النبوة، وهي نصرة النسبة إلى دعوة النبوة، وبركة النسبة لهذه الأعمال، وتلك النيات والمقاصد، وليس نصرة ذاتنا ولا بركة ذاتنا، وقد اجتهد المشايخ الكرام رحمهم الله تعالى لتأصيل هذا الأصل في المبلغين، فإذا تأثر أحد من الناس من بيان أو كلام أحد المبلغين، فليس هذا التأثر من ذاته ولا لسحر كلامه وألفاظه، ولكن من بركة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، ومقاصد ونيات دعوة النبوة، ونحن ظهر علينا هذا بسبب انتسابنا لهذا الكلام، ولهذه الدعوة المباركة وتلك المقاصد...

فالخروج في سبيل الله هو أعمال مسجد النبوة، من الدعوة إلى الله تعالى، والتعليم والتعلم، والعبادات والذكر، والخدمة، والتي تبدأ مع الإنسان في أول خروجه، وتستمر معه أثناء هذا الخروج ويكون مقيدا بها، وبما هو شأن هذه الرسالة التي أمره الله عز وجل بالدعوة لها...

فالله تعالى قد ختم النبوة بنبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنه ما ختم أعمال النبوة، والنبي صلى الله عليه وسلم قال "**لا نبي بعدي ولا أمة بعدكم**"[1] فلا نبي بعد النبي صلى الله عليه وسلم لأن الله تبارك وتعالى قد ختم به النبوات، ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾ الأحزاب.

ولكن جهد النبوة يبقى بعد النبي صلى الله عليه وسلم، كذلك أعمال مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، وهي الأعمال المُفضية إلى الهداية، وكل عمل من هذه الأعمال له أثر في حياتنا، فالدعوة لها أثر، وكذلك التعليم والتعلم، والعبادات والذكر والخدمة...

فكل عمل من الأعمال الأربعة السابقة، فيه صلاح النفس وصلاح الأمة، وفيه تزكية النفس وتربيتها، فإذا ما زكت أنفسنا تحصلنا على الإيمان الذي نحقق به كمال الامتثال لأوامر الله تعالى، ونجني منه كمال العبودية لله عز وجل وحده لا شريك له.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ٢٢/٣١٦، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/٢٧٤ وقال الحافظ في الفتح ١٣/٨٦: صححه ابن حبان.

وأول هذه الأعمال الأربعة وأعظمها هو عمل الدعوة إلى الله تعالى، الذي هو وظيفة الأنبياء، وسبيل الرسل الأصفياء، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ ﴾ (الأنعام: ٩٠) هؤلاء الذين هتفوا عبر الزمان والمكان إلى عموم البشرية والإنسانية خلال الأزمنة السحيقة، ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف: ٥٩)، فأشاروا إلى خالقهم، وعظموا معبودهم، وكبروا مولاهم، وتحدثوا عن عزة العزيز لمن لا يعرفها، فلا يتوهم متوهم منهم أنه متغلب وهو مغلوب، ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٢١) فقام الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف عليه السلام وهو محاط بجدران سجنه ليتكلم عن ربه ويقدس سيده، ويدعو إلى مولاه، وكذلك دأب كل مؤمن على قدم النبوة ونيات المرسلين، يأبى إلا أن يشير إلى مولاه، ويتوجه إلى خالقه، ويطلب معبوده، لا يهدأ ولا يقر له قرار، وهو يرى أن قدما تائهة عن ربها، أو شاردة عن الواحد القهار ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: ٤٠).

والله تعالى قد جعل لخلقه سننا بها يعرفونه ويصلون إليه وإلى ذلك الدين القيم ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (النساء: ١٢٥).

فحسَّن سبحانه دين من انقاد وأزعن واستسلم لأمره، ووجه وجهه إليه، وضحى بالنفس والمال اتباعا لملة الخليل إبراهيم عليه السلام في ذلك، وفي توجيه وجوه الناس لخالق السماوات والأرض، بالدعوة لخالق كل ما يُرى وما لا يُرى، وما يُحس وما لا يُحس، وما يُدرك وما لا يُدرك ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (الأنعام: ٧٥).

قال العلماء: "هذه هي شهادة الموقنين فإنهم لا يحبون ما غاب وانتقل وأفل، فإن إبراهيم عليه السلام وهو إمام الموقنين أخبر الله تعالى عنه أنه قال ﴿ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ ﴾ والموقن مأمور باتباع ملة إبراهيم بقوله تعالى ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي عليكم ملة أبيكم إبراهيم فاتبعوا ملته، واستمسكوا بهديه .

ونحن مع اجتهادنا وتضحيتنا وحرصنا على أعمال مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، تبدأ قلوبنا في التنوّر بأعمال الهداية، فإذا دخل النور إلى قلوبنا بقيامنا بحقيقة هذه الأعمال انشرحت صدورنا به وانفسحت فيتوجه طلبنا من الدنيا إلى الآخرة، فنتكلم عن الآخرة، ونرغب في الآخرة، ونسعى إلى الآخرة، وننتقل بأنفسنا وعموم المسلمين من أشواق الدنيا إلى أشواق الآخرة، كذلك بصبرنا على

هذه الأعمال المُكونة للهداية والإيمان، نتجافى عن دار الغرور، ونتحصل على الدين في حياتنا، فنصل إلى الحقيقة ونخرج من الغرور، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ (فاطر: ٥) .

الإنسان عندما ينور أي شيء مصباحًا أو نحوه، فهذا الشيء هو أولا يتنور ثم ينور بقية الأشياء، كذلك في جهد الهداية يهتدي الإنسان أولاً، ثم يكون سببًا في هداية الآخرين، فالمجتهد في الدعوة، الله عز وجل يهديه أولاً منه وعطاءً وفضلا منه، ثم يجعله سببا لهداية الآخرين...

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (يونس: ٩).

كذلك الله تعالى هو الذي يُظهر دينه ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (الفتح: ٢٨) لذلك عندما نقوم على هذا الدين يكون الخير لنا أولا، والرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو رحمة للعالمين وذلك بنيابة أمته عنه في هذه الرحمة على العالمين إلى قيام الساعة، **فبواسطة هذه الأمة وقيامها على مسئوليتها ووظيفتها في الدلالة على الخالق، ودعوة الخلق إليه، الله عز وجل يرحم على العالم.**

فالمهتدون هم الذين التزموا الطريق الموصل إلى الغاية

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (يونس: ٢٥).

كما أن الشمس يخرج منها الشعاع أيضًا هذا العبد المؤمن الداعي إلى الله يظهر منه النور في قلبه وبصره وسمعه، وهذا كان دعاء النبي صلى الله عليه وسلم "**اللهم اجعل في قلبي نورا وفي لساني نورا وفي بصري نورا وفي سمعي نورا وعن يميني نورا وعن يساري نورا..**"[1]. نور الدنيا في الدنيا فقط، أما نور الآخرة ونور الهداية فيمشي معه في القبر والحشر وحتى يصل معه إلى الجنة، ﴿ **نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ** ﴾ (التحريم: ٨).

وبهذا النور يتلألأ وجهه يوم القيامة...

ونور الهداية لا يستطيع أن يمشي به إلا صاحبه، ولا يقدر أن يسير به غيره فالنبي صلى الله عليه وسلم قلبه مملوء بهذا النور، ولكن عمه محروم من هذا النور ﴿ **وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ** ﴾ (الأنعام: ٢٦)، وآسيا زوجة فرعون عندها النور ولكن فرعون محروم منه، ونوح عليه السلام عنده النور وابنه وزوجته محرومان منه، ولوط عليه السلام عنده النور وزوجته محرومة منه...

نحن لابد لنا من جهد لتحصيل هذا النور، والصحابة رضي الله عنهم اجتهدوا وقاموا بهذا الجهد وتحصلوا على هذا النور ﴿ **يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (التحريم: ٨).

---

(١) رواه الإمام البخاري والإمام مسلم والنسائي وأحمد.

فأعمال مسجد النبوة من دعوة الإيمان واليقين والتعليم والتعلم والعبادات والذكر والخدمة، هذه الأعمال مُكوِّنة، وهناك أعمال تتكون منها، وهذا ردا على الذين ينتقدون على أهل الدعوة، بأنهم يقولون مقصد دعوتنا أن يأتي الدين كاملا في حياتنا، في حين أنهم لا يتكلمون أثناء خروجهم وجهدهم وتضحيتهم إلا على هذه الأربعة أشياء، فكيف يكون هذا، وهل هذا إلا مغالطة واضحة أو تخليط صريح؟

والجواب: الكون من حولنا يتكون من أربعة أشياء:

التراب والهواء والنار والماء، فكل أشياء الدنيا من هذه الأربعة كذلك أعمال مسجد النبي من دعوة الإيمان واليقين والتعليم والتعلم والعبادات والذكر، هذه الأعمال الأربعة تُكوِّن جميع أعمال الدين، فدعوة الإيمان واليقين ورائها أشياء لا حصر لها في الدين، والتعليم والتعلم وراءه أشياء لا حصر لها من الإيمان، كذلك العبادات والذكر يتشعب منها وفيها عموم أوامر الدين، أما الخدمة فتتحصل على أجور كل الأعمال.

هذه الأعمال الأربعة حتى يتم بها تزكيتنا وتربيتنا لابد أن نأتي بها كاملة، ولابد أن نقوم فيها ونؤديها بستة صفات، الصفات الثلاثة الأولى منها إذا لم نأتي بها فسد العمل، والصفات الثلاثة الأخيرة إذا لم نعمل بها فقدنا نور العمل، فالصفات الثلاثة الأولى شرطية لا يصح العمل بدونها، والصفات الثلاثة الأخيرة تكميلية فالعمل صحيح ولكن ناقص ...

هذه الصفات الستة هي: أولاً: اليقين الصحيح.

ثانيًا: الطريق الصحيح.

ثالثًا: الإخلاص.

رابعًا: استحضار الفضائل.

خامسًا: التوجه.

سادسًا: المجاهدة.

وبتطبيق هذه الصفات الستة على الصلاة مثلاً بعد القيام بفرائضها وسننها فتكون كالآتي: أولاً: نذهب إلى الصلاة باليقين الصحيح على أن الفوز والنجاح فيها.

ثانيًا: نذهب إلى الصلاة بالطريق الصحيح وهو هدي النبي صلى الله عليه وسلم "**صلوا كما رأيتموني أصلي**".

ثالثًا: نذهب إلى الصلاة بالإخلاص ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (طه: ١٤) لتذكرني فيها وتعظمني ولا تذكر سواي.

رابعًا: نذهب إلى الصلاة مستحضرين لفضائل الصلاة حتى يأتي الشوق والرغبة للأعمال.

خامسًا: نذهب إلى الصلاة متوجهين إلى الله تعالى كأننا نراه فإن لم نكن نراه فهو يرانا ويعلم أحوالنا فنصلي بصفة الإحسان...

في كل وقت لا نتوجه إلا إلى الله، لا ننظر إلى الجيب أو الأسباب أو المنصب فقط، بل ننظر إلى الله ونستعين به لأنه قريب مجيب، يونس عليه السلام نادى وتوجه إلى الله في بطن الحوت وسمعه الله ونجّاه...

كذلك الثلاثة الذين حبستهم الصخرة في الغار، علموا أنهم لا يستطيعون دفعها فمن يسمعهم، قالوا توجهوا إلى الله بأعمالكم وحسناتكم...

من دفع هذه الصخرة عنهم هو الله، كذلك في كل حاجة وفي كل مصيبة وعند كل ضيق، لا نلتفت إلى غير الله تعالى ولا نتوجه لسواه...

أصحاب الكهف قالوا ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (الكهف: ١٠). فتوجهوا إلى الله وحده.

سادسًا: نذهب إلى الصلاة بالمجاهدة في أداء الأوامر بالآداب في كل الأحوال، وأننا نقوم بأي عمل في الدين على أننا عبيد لله تعالى.

الذين يخالفون أنفسهم وشهواتهم، الله تعالى يجعلهم سببًا لإجراء مرضاته في العالم أجمع.

الذين يريدون أن يضحوا بأنفسهم لله تعالى، بسبب جهد هؤلاء يأتي الله بقوم يضحون في سبيله تعالى بأنفسهم.

فكل مقاصد أعمال مسجد النبوة تأتي في العمل إذا كان فيه هذه الستة صفات

وهذه الأعمال نوظفها في أموالنا وأنفسنا، بأن نتوجه لإعلاء كلمة الله تعالى بالدعوة إليه وتعظيمه في خلقه، ومعرفة الأوامر المتعلقة بحياتنا تعلمًا وتعليمًا، لإتمام عبادته وذكره، والإحسان إلى الخلق، وخدمة أنفسنا هذه هي الأربع وظائف لمقاصد دعوتنا.

"يا أيها الناس افشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام"(١).

هذه الوظائف من الدعوة إلى الله والتعليم والتعلم والعبادات والذكر والخدمة، لا نتعلمها في حياتنا الدنيا بل نتعلمها في الخروج في سبيل الله للدعوة إليه، وهذا الترتيب حتى يرجع كل مسلم إلى مقصوده في دينه.

وكل أحد يرى بيئة المسلمين التي فيها هذه الأعمال وتلك الوظائف هو يتأثر ويدخل في الدين.

النبي صلى الله عليه وسلم ما بُعث ليقوم أفراد الأمة وحدانا لوظيفتها ومسئوليتها، بل الأمة كاملة وأصحاب الرسالة الكاملة عليهم أن يؤدوا الوظيفة التي اختصهم الله بها.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤٥١/٥.

فليس فقط علينا أن نؤمن ونعمل صالحًا، ولكن الله حمَّلنا مسئولية العالم أن نعمل صالحًا ونتفكر لإصلاح العالم.

الرسول صلى الله عليه وسلم بُعث للناس كافة وكذلك أمته

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ: ٢٨).

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف: ١٠٨).

وقد بين هذا ووضحه، أن العمل هو المعتبر لا الأشخاص الشيخ محمد الثاني الحسني في كتابه (الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي) حياته ومنهجه في الدعوة ص ٥٥٠ حيث بيَّن الأصل والأساس الذي كان الشيخ محمد يوسف يؤكده ويشير إليه، وما حرص عليه طوال حياته واهتم به في توجيه أذهان الناس أن لا يعقدوا عمل الدعوة بناصية شخص، مهما كان هذا الشخص محبوبًا، وأن يكون الاعتماد في جهد الخارجين في سبيل الله والدعاة على الأعمال لا على الأشخاص فقال رحمه الله تعالى تحت عنوان:

العمل هو المعتبر لا الأشخاص :

كان الشيخ يعتبر كل حركة تجري على أساس شخص من الأشخاص حركة فاشلة خائبة، والحركة التي تجري على أساس العمل دون اللجوء إلى شخصية فكان يعتبرها حركة دائمة مستمرة، فإن الشخصية في نظر الشيخ فانية، والحركة باقية، وانحصار بقائها على صلتها بالله تبارك وتعالى، وصرح الشيخ عن اجتماع كان الناس يعتقدون أن حضوره شخصيًا يؤدي إلى نجاح الاجتماع،

وعدم حضوره يؤدي إلى فشله، صرح في رسالة له: "بعد بحث ودراسة طويلة دامت عدة أيام واستشارة واستخارة قمت بها وإخواني الآخرون، وصلت إلى نتيجة واحدة، وهي أن الاجتماعات التي شاع عقدها على أساس اشتراك شخصيات خاصة فيها، إن كانت مثمرة في جمع الأحبة والعاملين من أماكن بعيدة ويستعد الناس للخروج في سبيل الله، ويوجد جو خاص له، ولكن يخشى أن تؤدي هذه الاجتماعات إلى مفاسد وشرور بدلا من فتح أبواب الرحمة، ثم لأن هذا العمل الذي كان كالعنقاء، فتح الله أبواب انتشاره بطريق خاص بجهود الجماعات، أما الاجتماعات فإنها تحول هذه الجهود ونتائجها إلى الشخصيات وخطبها، وتنحرف الأذهان من العمل إلى الشخصيات وكلامها، وهذه الوجوه التي تتجلى عن طريق عقد الاجتماعات ثروات إضاعة الأشخاص وعمل الدعوة، وتحمل خطورة، وكيف يمكن أن يوجه جمع كبير من الناس في جهود يومين أو ثلاثة أيام إلى هذه الوجوه والأخطار التي إذا لم توضع موضع الاعتبار الدقيق، خلا هذا العمل مما يحمله من دواعي الرحمة والبركة، إن غياب هذا العبد كان يشق على طبائع الناس، لكنه يهيئ فرصة للجهد المزيد للدعوة"(١).

---

(١) رسالة إلى الشيخ افتخار الفريدي، والشيخ محمد منظور النعماني رجب سنة ١٣٧٣هـ.

كان هذا مسلك الشيخ محمد يوسف وطريقه طوال حياته، فإن العزة والمحبة من الله، وقد أودع الله في سائر الخلق محبته وإكرامه، وكانت هذه المحبة تزداد كل يوم، ولكن الشيخ بنفسه قد نقل هذه الحركة إلى المستوى الذي ارتفعت فيه عن التأثير الشخصي والطابع الشخصي، ولا يؤثر فيها اشتراك شخص أو عدم اشتراكه، ولو لم يكن ذلك لوقف العمل بعد وفاته، كما حدث في تاريخ الحركات التي تسير تحت قيادة شخصية واحدة، فإذا غابت هذه الشخصية وقف العمل، أو خمدت حرارته، وانكمش حجمه واهتم الشيخ محمد يوسف طوال حياته بتشكيل أذهان الناس أن لا يعقدوا هذا العمل بناصية شخص مهما كان هذا الشخص محبوبًا إلى النفوس، فلما توفى الشيخ محمد يوسف لم يقف العمل، بل اتسع نطاقه، وتضاعف وطبق الآفاق.

يقول الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي معلقا على هذا الحادث:

"كنا بعد وفاته متأكدين أن هذا العمل سيواجه عقبات، وتصعب مواصلته واستمراره، ولكن الله تعالى بفضله ورحمته العامة وقدرته الكاملة قد بين هذه الحقيقة أن الأعمال لا تستند إلى الأشخاص، ولا ينكر أحد هذه الحقيقة الناصعة، فقد تصاعد عقد الاجتماعات، وتضاعف احتشاد العاملين، وازدحامهم بما لم يكن يتصور في حياة الشيخ محمد يوسف، لقد انعقد اجتماع "رائي وند" وكان الناس يخشون كما وردت رسائلهم أن الشيخ محمد يوسف توفى، وأن الطريق مسدود، ولا يتوقع أن يصل مشايخ "نظام الدين" فكتبوا إلى الشيخ سعيد خان في "مكة المكرمة" أن يشترك في الاجتماع، فوصل

إلى "رائي وند" قبل يومين من انعقاد الاجتماع، وذكرت الرسائل أن مثل هذا العدد الكبير لم يشترك في الاجتماعات السابقة التي اشترك فيها الشيخ محمد يوسف، وأفادت هذه الرسائل أن عدد الجماعات الخارجة من الاجتماع إلى الدول الخارجة لم يكن بتجاوز ٨٠ في أي اجتماع سابق، ولكن بلغ العدد في هذا الاجتماع ١٤٠ جماعة، وقد اكتظ المخيم في اليوم الأول، وإن كان أضخم من المخيمات السالفة، فأضيف إليه، واستمرت هذه الزيادات كذلك الاجتماعات التي عقدت في "الهند" وكانت مواعيدها قد حددت في حياة الشيخ، كان يخشى أنها لن تنجح أو يضطر المسئولون عنها إلى إرجائها، ولكن علمت عن كل اجتماع أنه كان أكثر نجاحا وأكبر عددا من قبل، وكذلك تنعقد الاجتماعات بصورة مستمرة وبكثرة وافرة، وتنعقد بعض هذه الاجتماعات بدون اشتراك مشايخ "نظام الدين".

وفي هذا المعنى كان تأكيد الشيخ محمد يوسف رحمه الله تعالى، على أن الأعمال وحدها هي المعتبرة لا الأشخاص). انتهى

يقول الشيخ محمد الثاني الحسني في كتابه الشيخ محمد يوسف ص ٥٣١ تحت عنوان: **الأعمال والأخلاق بدلاً من الذات والشخصية:**

كان الشيخ محمد يوسف يعتقد أن الذات والشخصية لا دخل لها في الصلاح والفلاح والرقي والازدهار، والتقدم والاستعلاء، إنما يقوم الصلاح والفلاح على مقياس الأعمال والأخلاق.

أقول: ثم استدل الشيخ محمد الثاني على المقدمة السابقة بكلام الشيخ محمد يوسف حيث يقول **(لا تأتي نصرة الله على أساس الشخصيات بل تأتي على أساس الأوصاف والأعمال والأخلاق، وقد نصر الله رسوله، ونصر أصحابه والأولياء الآخرين وأنعم عليهم، ونصرهم على أساس أعمالهم وجهودهم وتضحياتهم في سبيل الله، ومساعيهم في سبيل الله وكذلك اليوم إذا تصدى أحد بأعماله وتضحياته وجهوده المخلصة لدين الله، فإنه سيستحق نصرة الله يشاهد ذلك بعينه)** انتهى كلام الشيخ يوسف.

يقول الشيخ محمد الثاني: **(وكان المقصود من الأعمال لدى الشيخ محمد يوسف أوامر الله، وأعمال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن هذه الأعمال منوطة بعلم النبوة واليقين، لا تتأتى إلا في ضوء هذه التعاليم النبوية، وكذلك الأخلاق لا يهتدي إليها الإنسان إلا عن طريق الأعمال الصالحة والعبادة، ولا تصلح الأخلاق إلا الأخلاق التي تقوم على الإخلاص وحسن النية، وإلا فلا قيمة لها ولا تأثير، بل هذه الأعمال المجردة عن الإخلاص تأتي بالوبال) انتهى كلام الشيخ محمد الثاني.**

ليس بسبب العبادة فقط
والأعمال الانفرادية
تتغير البيئة

الدعوة إلى الله مقصدها وتأثيرها تغيير البيئة وتغيير اليقين، فعندما تكون بيئة الدعوة والإيمان لا يعمل المسلم المعصية، لأن الإيمان يدفعه إلى كمال الامتثال والانقياد لأمر الله تعالى، وقد أخبر بذلك سيد البشرية وشفيع الإنسانية صلى الله عليه وسلم حيث قال "**لا يزني الزاني وهو يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو يسرق وهو مؤمن**"(١) فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن الدافع لتمام الامتثال والطاعة لأمر الله تعالى هو وجود كمال الإيمان، وقد أشار إلى ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم "وهو مؤمن" أي كامل الإيمان، حيث نقص إيمانه فزنى، ونقص إيمانه فسرق فماذا نفعل مع من كان هذا حاله، هل نخبره بأن الزنى حرام، أو أن السرقة حرام، هو يعلم ذلك، وما زنى وما سرق إلا وواعظ الإيمان يهتف في داخله أنك ترتكب شيئًا محرمًا، إذًا فما هو الحل وكيف العلاج، نقول العلاج قد ذكر في الحديث فعندما نقص إيمانه زنى وعندما نقص إيمانه سرق، فبمفهوم المخالفة في الحديث إذا كمل إيمانه لا يزني ولا يسرق، ويمتثل جميع المأمورات وينتهي عن كل المنهيات، وهذه النتيجة والثمرة من البديهيات التي نراها الليل والنهار، ونلمسها في كل

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الحدود "باب السارق حين يسرق، ورواه الإمام مسلم في صحيحه ٧٦/١ "باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله" ح(٥٧)، ورواه الإمام الترمذي في سننه ١٢٩٨/٢ "باب ما جاء لا يزني الزاني وهو مؤمن" ح(٢٦٢٥).

الأعمار، فمع وجود الدعوة والأعمال وبيئة الإيمان تمتثل الأمة لعموم أوامر الله تعالى، وعندما تكون بيئة الدعوة والإيمان موجودة لا يعمل المسلم المعصية، وحتى لو عملها اعترف بها ليتطهر، والأمثلة على ذلك كثيرة كالصحابي الذي أصاب من امرأة قبلة، وماعز رضي الله عنه عندما اقترف جريمة الزنى جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليقيم عليه الحد، معترفًا بها حتى يتطهر، والمرأة التي حملت من الزنى، جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم واعترفت بذلك ليقيم عليها الحد وتتطهر، فأخّرها حتى تضع حملها، ثم أخرها حتى تفطم طفلها، ثم أمر برجمها ولما أصاب دمها أحد الصحابة فسبها، نهاه النبي صلى الله عليه وسلم وقال **"لقد تابت توبة لو وزعت على أهل الأرض لوسعتهم هل هناك أفضل من أن جادت بنفسها لله"**[1].

فهذه الأمثلة ما وجدت إلا بوجود الإيمان المتحصل من بيئة الدعوة، ولو لم يكن الإيمان موجودًا وكانت بيئة الدعوة والإيمان غائبة، فنحن لن نتحصل على هذه الأمثلة...

فمع بيئة الإيمان والأعمال كانت الطاعة وكانت نصرة الله، والذي يجمع الناس ويؤلفهم **هو عمل الدعوة الذي أساسه وأصله التفكر للآخرين بالهداية والرحمة، وأن يكونوا في النجاة والفوز الأبدي**، وعندما يكون عموم المسلمين على الإيمان، وجهد الدعوة

---

(١) رواه الإمام مسلم، وأبو داود والنسائي والطبراني في الكبير والدارقطني.

إلى الله تعالى قائمًا بتعظيمه والدلالة عليه، وتركز الكلام مع الناس على الغيب والموعود والجنة والنار، وفاعليه الله تعالى وقيوميته على خلقه، نحن نتيقن على الموعود وتكون لنا نصرة الله تعالى...

في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ومع وجود الدعوة وبيئة الإيمان، الكافر كان يرى الملائكة، ويرى نصرة الله حتى يهتف بعضهم "ليس هذا من أسرني ولكن شخص آخر" .

في هذا الزمان مع غياب بيئة الإيمان وبيئة الدعوة، المسلمون لا يستطيعون رؤية نصرة الله، ولكن المشركين كانوا يعرفون أن المسلمين ينتصرون بقوة الله تعالى ونصرة الله عز وجل ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾، ﴿ **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ** ﴾، ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا...**﴾

فعندما يكون عموم المسلمين على الدعوة يكون الإيمان، وتكون نصرة الله تعالى، والسؤال يأتي من كل جانب، متى تنزل نصرة الله العمومية لأمة النبي صلى الله عليه وسلم؟

والجواب على ذلك عندما ينصلح الإيمان والأعمال في عموم أمة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد قضى الله تعالى في سننه أنه بسبب الأعمال الانفرادية لا تتغير البيئة، ولكن بالاستقامة على الإيمان والأعمال الاجتماعية تتربى أنفسنا، وبتربية نفوسنا تتغير البيئة...

نحن إذا جلسنا الليل والنهار نراعي أوقاتنا في المسجد، فالبيئة لا تتغير، أما إذا قمنا بالجهد الاجتماعي عن طريق الدعوة الاجتماعية الإيمانية في المجتمعات، فالبيئة تتغير وتظهر أعمال الإيمان، كل ذلك بالجهد الاجتماعي لا بالجهد الانفرادي والأعمال الاجتماعية للدعوة ثمانية: المشورة وحلقة التعليم والجولة والبيان وسفر الجماعة والطعام والنوم...

علاقة النبي المختار محمد ﷺ وسلم كانت تامة كاملة مع ربه، فالنبي ﷺ يأخذ من الله تعالى ويعطي قومه حرصًا ونصحًا ورحمة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨).

لم تسجد جبهة لله تعالى هي أكرم عليه من جبهته الشريفة، ولم يتقلب أحد سجودًا وقربًا من ربه، أكمل ولا أخشع منه صلى الله عليه وسلم، والله تعالى وصفه بقوله ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٩).

ولكن بسبب العبادة لم ينس النبي محمد صلى الله عليه وسلم أمته، فقام على دعوتها ونصحها ودلالتها على خالقها وطلب فوزها ونجاتها ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

أما لو انشغل المسلمون بعده عن الدعوة، تكون النتيجة أن يضل الناس ولا يبقى إلا القليل من العباد، العابد إذا قال ليس مسئوليتي الأمة أصابه البلاء بفتنتها...

عندما يحترق بيت واحد من الناس، إن لم يساعده جاره احترق بيته أيضًا، بعبادة الصالحين فقط لا تحل مشاكل العالم لأنهم لم يجتهدوا لإصلاح العالم، أما بدعوة الصالحين وعبادتهم فينصلح العالم وتنصلح البيئة وتحل جميع المشكلات...

نحن علينا أن نحيي في أمة النبي صلى الله عليه وسلم الشعور بأن عليها مسئولية الدعوة وإقامة دين الله تعالى وطاعته في عموم البشرية والإنسانية.

الذي يجتهد لدين الله تعالى يحصل له حب الخلق ﴿ **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ** ﴾ (الشرح: ٤).

الإمام لابد أن يكون مقدما، ولكن لو أخرنا الإمام وتقدمت عليه الصفوف، كيف تكون الصلاة...

لو أخرنا جهد الدعوة وهي أم الأعمال، وإمام الأعمال، وقدمنا غيرها عليها، كيف هو الحال في جميع أمورنا، الإنسان لو يجتهد للدعوة في سبيل الله تعالى بالحقيقة فالله تعالى يُسهل له امتثال كل أوامره، فيأكل ويشرب وينام ويصوم ويصلي ويتزوج كله على أمر الله تعالى وعلى سنة حبيبه صلى الله عليه وسلم.

بسبب ترك الدعوة ما نزلت نصرة الله، ولو نزل العذاب فنحن أول المتضررين ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً**﴾ (الأنفال: ٢٥).

الصحابة رضي الله عنهم قبل ١٤٠٠ سنة بينوا مقصد بعثة هذه الأمة، وهو تعبيد الخلق لله تعالى، والدلالة على الخالق، وهذا ربعي بن عامر يفصح عن الأساس الذي بُعثت لأجله هذه الأمة وذلك بقوله "إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد" ونحن إذا لم نقم على هذا المقصد "**تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**".

أكبر ضربة كانت للأمة حرمانها من الدعوة الاجتماعية، بعد سنين الخيرية "**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**"[1].

فالدعوة ظلت في الأفراد، لكن الأمة في عمومها حرمت من الدعوة الاجتماعية فضعفت الأعمال والأخلاق والمعاشرات وظهرت أوصاف وصفات غير المسلمين في حياة الأمة...

الله تعالى بمنه وعنايته ورحمته مد يد كرمه بهذا العمل، عمل الدعوة إلى الله تعالى ليقيم أعمال مسجد النبي صلى الله عليه وسلم في الأمة فوجوده نفحة ربانية ومنحة قدسية.

---

(١) متفق عليه.

إن أمة النبي صلى الله عليه وسلم الموجودة على وجه الأرض الآن، والمنتشرة في عموم البسيطة، هي متعرضة في الليل والنهار من الأغيار ومن أعدائها لترك دعوتها، والتنكب لرسالتها ونسيان مسئوليتها ووظيفتها.

وكل قائم الآن في الأمة لبعث مقاصدها، وإحياء دعوتها ورسالتها، وأوامر ربها وأعمال مسجد نبيها المفضية إلى الهداية، فالله سبحانه وتعالى يجعل تضحية هؤلاء سببًا لإجراء مرضاته في عموم الدنيا، ويمدهم بمعيته وعونه، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: "**إنما بعثتم ميسرين**"[1] فالأمة كلها مبعوثة بالدعوة الاجتماعية لعموم البشرية والإنسانية بإخبار نبيها صلى الله عليه وسلم لها بذلك.

نصرة الله تعالى تتوجه إلى العباد حينما تيأس العقول وتغلق الأبواب ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ (يوسف: ١١٠). نسأل الله تعالى أن يرزقنا حقيقة الدعوة، وأن نحرص كلما قمنا بعمل من أعمال الدعوة، أن نزداد يقينا وانشراحًا واعتمادًا على الله تعالى، حتى إذا جن علينا الليل، فلا ننس عند قيامنا بين يديه أن نعترف بتقصيرنا وضعفنا، وأن نلوذ بقوته وقدرته وعونه، **اللهم بنفس القوة التي ربيت بها الصحابة رضي الله عنهم فربِّنا، وتفضل علينا من خزائنك، وكما انتخبتهم لهذا العمل فانتخبنا وسلالتنا إلى يوم القيامة.**

---

(١) أخرجه البخاري.

ونحن إذا نظرنا إلى الثمرات والنتائج، يمكن بها أن نتعرف ونحكم على الوسائل، بذمها والتحذير منها، أو بمدحها والثناء عليها، خاصة مع موافقتها لأحكام الشرع، وعدم مخالفتها لقواعده وأصوله...

فلو كانت هذه الدعوة غير مؤسسة على الأصلين الكتاب والسنة، ولا تدعو إلى الأصلين الكتاب والسنة، لطفح ذلك في وسائلها وثمراتها ونتائجها، ولرأينا البعد التام عن أحكامهما، ومخالفة أصولهما، إلا أن الواقع خلاف ذلك، والمشاهد الملموس، لكل ذي عينين، هو الالتزام التام بنصوص الكتاب وأحكامه، وهدي السنة وآدابها وأحكامها...

فالذين يخرجون مع أهل الدعوة في كل زمان ومكان، وفي جميع أنحاء المعمورة، ليسوا في ستر مكنون، أو يتخفون في نفق من الأرض بعيدًا عن العيون، بل هم ظاهرون لائحون، وضوح الشمس في رابعة النهار...

فتراهم قبل أن يخرجوا في سبيل الله، بعيدين كل البعد عن الدين، وعموم أحكامه، وبتعرفهم على عمل الدعوة وعلى أهلها، إذ بهم المحافظون على السنة أشد المحافظة، في كل ما يتعلق بحياة المسلم، وفي أدق تفاصيلها، هذا في ظاهرهم، من المحافظة على العمامة، والقميص والسواك، وسنن الطعام والشراب والمنام، والطهارة والصلاة والصيام والاعتكاف، وغير ذلك مما يصعب حصره...

أما في بواطنهم فهم العاملون والقائمون على إحياء نيات ومقاصد النبوة، في الهداية والدلالة على الخير، حيث وفقهم الله تعالى لذلك وجعلهم سببًا لتحققه في الأمة، ولحب النصح والإصلاح لعموم الإنسانية، وهذه النيات لولاهم لكانت على وشك أن يتناساها المسلمون في عمومهم، إلا أفرادًا مخصوصين من أهل العلم والصلاح، ظلت هذه النيات ظاهرة في أعمالهم، يدعون إليها ويحيونها، كذلك الأخلاق والمعاملات والمعاشرات، التي دعت إليها نصوص الشرع...

وكم نعد من الآيات والأحاديث في ذلك، من الحث على اللين والرحمة والشفقة، والحرص على المسلمين، وخفض الجناح لهم، وحب الهداية والتوبة لعمومهم، والنصح والإصلاح معهم، كل ذلك هو ثمرة ما تعلموه في هذه الدعوة المباركة، ولم يكونوا قبل ذلك كذلك...

فهذه من الخصال الجامعة المانعة لحق المسلم على أخيه المسلم، بجلب كل نفع له، ودفع كل ضرر عنه، والحرص على تمام نصحه في كل حال، وعلى أي وجه، وأن نحب له ما نحب لأنفسنا..

وقد كان سيدنا عبد الله بن عباس يعظم هذه المعاني، من حقوق الأخوة في الإسلام، ويفرضها فرض الحلال والحرام وكان يفسر بها قوله تعالى (رحماء بينهم).

قال ابن عباس يعني متوادين بينهم يدعو طالحهم لصالحهم ، إذا نظر الطالح إلى الصالح من أمة النبي صلى الله عليه وسلم قال "اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير وثبته عليه وانفعنا به وإذا نظر الصالح إلى الطالح من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال: اللهم اهده وتب عليه واغفر له، قال ابن عباس: هذه من حلالكم وحرامكم.

قلت: فهذه الخصال مما أكَّده الله تعالى تحقيقاً لأخوة الإسلام، وقد جعلها الله تعالى أساسًا للخصال الأخرى، التي هي حق المسلم على أخيه المسلم، **والتي ذكرها الله تعالى تفصيلاً في كتابه، وبينها رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته، والتي هي في مجملها داعية إلى أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وأن يجلب المسلم لأخيه كل الخيرات، ويدفع عنه كل المنكرات، وفي حرمة إيذاء المسلم بأدنى أنواع الإيذاء قال النبي صلى الله عليه وسلم "كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه"**[1] .

فهذه الثلاثة كلها محرمة، على أي وجه كان الإيذاء، وما تفرع منها من تفصيلات وحقوق، جعلنا الله تعالى من المعظمين لهذه الأحكام الحافظين لحدودها...

---

(١) رواه الإمام مسلم في البر ح٣٢، وأبو داود في الأدب باب ٣٥، والترمذي في البر باب ١٨، وابن ماجه في الزهد باب ٢٣، وأحمد في المسند ٣/٤٩١.

وقد كان أهل الدعوة ممن وفقهم الله تعالى لتعظيم هذه الحقوق، والتحذير من إهمالها أو تركها، والعمل على إحياءها في أمة النبي ﷺ..

هذا في عمومهم وهو الأمر الغالب عليهم، وهي أمور يقينية محسوسة مشاهدة معلومة، لا التفات منهم إلى قبور أو نذور، ولا رقص عندهم أو طبول، ولا مجازفات أو مخالفات، ويومهم في الخروج محدد معلوم من الفجر إلى العشاء، ليس فيه إلا كلام الله تعالى وهدي رسوله صلى الله عليه وسلم، والقيام للنصح والإصلاح لعموم المسلمين، ومن أراد فليأت بمتاعه، وليخرج معهم ليتحقق من ذلك...

فإذا كانت هذه صفاتهم، ونتائج دعوتهم، وهي يقينية مشاهدة معلومة، والمُدَّعون عليهم، وكأنهم يصفون أناسًا وأقوامًا لا وجود لهم في الحقيقة، إلا في وساوس الصدور، والحقيقة على خلاف ما يدَّعون بالكلية، وهم لا يرجحون ويقدمون هذا الأساس، الذي وضحه أئمة الدين للحق والحقيقة ردًّا على السادرين في الزور، حيث قرر أئمة الأصول أن "اليقين لا يزول بالشك"، وأن الأصل استصحاب الأصل وبقاء ما كان على ما كان" ويقين أهل الدعوة في أرجاء المعمورة ما سبق أن ذكرناه، وهو يخالف ظنونهم، وشكوكهم وبهتانهم...

ولو كانت ظنونكم صادقة، لكان التابع على شاكلة المتبوع، ومتى يستقيم العود والأصل أعوج، فلو كان في أصل دعوتهم وفي أئمتهم ما ذكرتم، لطفح في الفرع، بل لحلت كارثة شرعية، في انتشار كل هذه الأكاذيب والرذائل، على مستوى المعمورة، ولكن والحمد لله تعالى الواقع فيهم على خلاف ذلك، والمنتشر منهم هو الدعوة إلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم في آناء الليل وأطراف النهار، لا يكِلّون في ذلك ولا يملُّون وقد عبروا عن هذا بالإعلان الموجز، عند قيامهم لدعوة الناس والملخص لحالهم ودعوتهم وهو **"أن فلاحنا ونجاحنا في الدنيا والآخرة في الامتثال لأوامر الله تعالى على هدي النبي صلى الله عليه وسلم"...**

فالكتاب والسنة طريقهم ودعوتهم، وهو ما يتمسكون به ويحرصون عليه، وهم بذلك محفوظون من الضلالة بنص حديث المعصوم صلى الله عليه وسلم "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا كتاب الله وسنتي"[(١)].

نسأل الله تعالى أن يشرح لما سبق الصدور وأن يجلي به القلوب وأن يمن علينا بحب السنة وأهلها، وأن يحشرنا تحت لوائها وحب الصالحين، **ونختم ما سبق بكلام نفيس للشيخ أبي بكر الجزائري في رسالته عندما سئل عن ذلك في القول البليغ في جماعة التبليغ حيث قال حفظه الله: قالوا: دعوة التبليغ دعوة صوفية.**

---

(١) سبق تخريجه.

ونقول: إذا كان التصوف هو التزام طريقة صوفية كالنقشبندية أو التيجانية أو الرفاعية، وهي تقوم على طاعة الشيخ المربي والتزام الود والمؤاخاة في الطريقة، والدفاع عنها وعداء كل من يعاديها فوالله ما رأينا في جماعة التبليغ هذا لا في شمال إفريقيا ولا في أوربا ولا في الشرق الأوسط ولا سمعنا عنه في أمريكا. ومع هذا لو وجد فرد مع جماعة التبليغ متصوفًا ذا طريقة، فلا يكون ذلك عيبًا في دعوة الجماعة، إذ هي دعوة عالمية يدخل فيها من هب ودب. وحسب الجماعة أن منهجها خال من التصوف قولاً وعملاً واعتقادًا، وأنها لا تدعو إلى التصوف بقول ولا عمل كما هو معلوم لكل من خرج مع هذه الجماعة. وكون بلاد نشأة جماعة التبليغ وهي الهند، بلاد تكثر فيها الطرق الصوفية فإن مصر اليوم بها سبعون طريقة صوفية، ولها مجلس أعلى يُديرها فهل ضر ذلك الجماعات الإسلامية بمصر؟ وإن فرضنا جدلاً أن محمد إلياس المؤسس لجماعة التبليغ كان صوفيًا، أو أن خلفه إنعام الحسن كان صوفيًا، والدعوة خالية في منهجها وأسلوبها من التصوف، فهل يخل ذلك بالدعوة أو توصم كوصمة عار تصرف الناس عنها؟ اللهم لا... إذًا فشيئًا من الرفق والتعقل أيها الإخوان في الله هداكم الله وإياي آمين" انتهى كلام الشيخ أبو بكر الجزائري.

ومع نهاية هذه الألفاظ العطرات، توقفت الكلمات، ليراجع كل أحد منا أمانته، وينظر إلى دعوته، ونصحه إلى أمته، بيانًا لا كتمانًا، وصدقًا لا زورًا وبهتانًا...

رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا

ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين ...

فاجعل لي عندك عهدا توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد...

والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا، ما لاح فجر، وسار نجم، وأضاء قمر،

وجرى ماء، اللهم هب لنا في كل نفس

نيات ومقاصد المرسلين، ومُن علينا بتوبة ومغفرة دائمين،

ودلنا على صراطك المستقيم، واحملنا فيه كل حين، حتى نلقاك غير خزايا

ولا مُقصرين، ولا مبدلين ولا مُغيرين تحت لواء سيد الخلق أجمعين،

واسقنا من يده الشريفة شربة لا نظمأ بعدها أبداً،

واغفر لآبائنا وأمهاتنا ومشايخنا وعلمائنا وأصحابنا وإخواننا

ومن له حق لازم علينا والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم

والأموات إنك سميع قريب مجيب الدعوات،

فيما مضى وفيما هو آت، يا مجيب الدعوات ويا قاضي الحاجات،

برحمتك يا أرحم الراحمين... آمين.

ملحق لفتاوى
ورسائل كبار العلماء
في العالم الإسلامي
في أهل التبليغ والدعوة

فتوى دار الإفتاء المصرية (أمانة الفتوى)

بسم الله الرحمن الرحيم

(فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) [النحل: ٤٣]

(الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين)

اطلعنا على الخطاب الوارد من فضيلة الشيخ/ رحمة الله حاجي إغمبرديف (مفتي جمهورية قرغيزستان) والمقيد بالفتوى رقم : ٣١ لسنة ٢٠١٤ م

والمتضمن : السؤال عن جماعة التبليغ والدعوة .

الجواب :

التبليغ لغة: مصدر بلَّغ بالتشديد . قال ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة " [مادة: ب ل غ ١/ ٣٠١- ط. دار الفكر]: "الباء واللام والغين أصلٌ واحد، وهو الوُصول إلى الشيء، تقول: بَلَغْتُ المكانَ، إذا وَصَلْتَ إليه" اهـ.

واصطلاحًا : مجرد الإعلام والإخبار، فهو إيصال للخبر، سواء أكان ذلك عن طريق المشافهة أم الكتابة أم إرسال رسالة ، قال الله تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) [المائدة: ٦٧]. وهذا المعنى مأخوذ من استقراء سيرة النبي صلى الله عليه وسلم .

والتبليغ من الصفات الأربعة الواجبة في حق الأنبياء والمرسلين ، وهي : الصدق، والأمانة، والتبليغ ، والفطانة، [انظر: حاشية البيجوري على جوهرة التوحيد، ص ٢٠٣، ط . دار السلام].

وجماعة التبليغ: جماعة إسلامية من أكبر الجماعات الإسلامية الدعوية في العالم، وقد أنشأ هذه الجماعة في الهند في القرن الرابع عشر من الهجرة الشيخ محمد إلياس بن محمد إسماعيل الكاندهلوي الديوبندي (ت: ١٣٦٣هـ)، وقد بذل كل غال ونفيس في سبيل نشر دعوته حتى وصلت في حياته إلى معظم مدن الهند وأريافها، ثم انتشرت الدعوة في شتى بقاع الأرض، وتقوم دعوتها على تبليغ فضائل الإسلام لكل من تستطيع الوصول إليه، وتدعو اتباعها أن يقتطع كل واحد منهم جزءًا من وقته لإصلاح وتقويم نفسه ولتبليغ الدعوة ونشرها، وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأولى اهتمامهم في هذا الصدد: العناية بالجوانب الأخلاقية والسلوكية، دون تطرق للأمور العلمية والمسائل النزاعية. وهم في دعوتهم تلك بعيدون عن التحزب والتصنيف على أساس الخلاف الفقهي أو المذهبي أو السياسي.

وقد قرر مؤسسها الشيخ الكاندهلوي ستة مبادئ جعلها هي أساس دعوته؛ وهذه المبادئ هي: الكلمة الطيبة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، وإقامة الصلوات ذات الخشوع، والعلم، والذكر، وإكرام المسلمين، والإخلاص.

ومعلوم أن الأصل في حكم تبليغ الدعوة، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الوجوب الكفائي؛ قال تعالى : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) [آل عمران : ١٠٤]. وصيغة الأمر في الآية في قوله تعالى : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ) صيغة وجوب .

وقد روى البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "بلغوا عني ولو آية" وقوله في الحديث: "ولو آية" أي: واحدة؛ ليسارع كل سامع إلى تبليغ ما وقع له من الآي ولو قل؛ ليتصل بذلك نقل جميع ما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم. [انظر: فتح الباري للإمام ابن حجر العسقلاني، ٤٩٨/٦ – ط. دار المعرفة – بيروت].

قال الإمام الطحاوي في شرح معاني الآثار [١٢٨/٤- ط. عالم الكتب]: "فأوجب رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث على أمته التبليغ عنه" اهـ.

وأما طواف بعض أفراد الجماعة على الناس في بيوتهم أو أسواقهم أو في الطرقات وأماكن اللهو لدعوتهم، فنقول: إنه لا حرج في زيارة الناس من أجل تذكيرهم ودعوتهم إلى الله سبحانه وتعالى، إذا روعي في ذلك التقيُّد بضوابط الشرع وآدابه في الزيارة، بل إن القيام بهذا العمل يُعَدُّ من أفضل القرب، والسعي فيه يدل على علوِّ هَمَّةِ الساعي، وحبِّه الخير للجميع، مما يعني كمال إيمانه، مصداقًا لما رواه الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "لا يُؤْمِنُ أحدُكُمْ حتى يُحب لأخيه ما يُحب لنفسه".

وقد عرض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفسه على القبائل ليؤمنوا به، ولينصروه؛ قال ابن إسحاق: " فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يَعْرِض نفسه في المواسم إذا كانت على قبائل العرب، يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه، ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به ". [الروض الأُنُف في شرح السيرة النبوية للسهيلي، ٤/ ٣٦، ٣٧- ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت].

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ركب على حمار على قطيفة فَدَكِية، وأردف أسامة وراءه يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر. قال: " حتى مَرَّ – أي: النبي صلى الله عليه وآله وسلم – بمجلس فيه عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول، وذلك قبل أن يُسلِم عبد الله بن أبي، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خَمَّر عبد الله بن أبيَ أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم، ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي ابن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقًا فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا؛ فإنا نحب ذلك".

وفِعْل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من عرْض الدعوة على الآخرين بالتحرك عليهم هو أصلٌ لما تفعله جماعة التبليغ، فإنهم يتحركون على الناس بالدعوة في الطرق والبيوت.

كما ورد في كلام أهل العلم ما يفيد الحرص على إرشاد الناس وتعليمهم، وأن ذلك لا يتوقف على كامل العلم، ولكن كل إنسان يُعَلِّم ما تعلمه، قال الإمام الغزالي في "إحياء علوم الدين" [٣٤٢/٢، ط. دار المعرفة- بيروت]: "اعلم أن كل قاعد في بيته- أينما كان- فليس خاليًا في هذا الزمان عن منكر؛ من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف ، فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد، فكيف في القرى والبوادي؟! ومنهم الأعراب والأكراد والتركمانية وسائر أصناف الخلق. وواجب أن يكون في مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس

دينهم ، وكذا في كل قرية. وواجب على كل فقيه – فرغ من فرض عينه، وتفرغ لفرض الكفاية– أن يخرج إلى من يجاور بلده من أهل السواد، ومن العرب والأكراد وغيرهم، ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم، ويستصحب مع نفسه زادًا يأكله، ولا يأكل من أطعمتهم...، فإن قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الآخرين وإلا عم الحرج الكافة أجمعين؛ أما العالم فلتقصيره في الخروج، وأما الجاهل فلتقصيره في ترك التعلم. وكل عامي عرف شروط الصلاة فعليه أن يُعَرِّف غيره، وإلا فهو شريك في الإثم. ومعلوم أن الإنسان لا يولد عالمًا بالشرع، وإنما يجب التبليغ على أهل العلم، فكل من تعلم مسألة واحدة فهو من أهل العلم بها، فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات، ثم يُعَلِّم ذلك أهل بيته، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه، ثم إلى أهل محلته، ثم إلى أهل بلده، ثم إلى أهل السواد المكتنف ببلده، ثم إلى أهل البوادي من الأكراد والعرب وغيرهم، وهكذا إلى أقصى العالم، فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد، وإلا حُرِّج به على كل قادر عليه قريبًا كان أو بعيدًا ولا يسقط الحرج ما دام يبقى على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه وبغيره فيعلمه فرضه، وهذا أشغل شاغل لمن يهمه أمر دينه، يشغله عن تجزئة الأوقات في التفريعات النادرة والتعمق في دقائق العلوم التي هي من فروض الكفايات، ولا يتقدم على هذا إلا فرض عين أو فرض كفاية هو أهم منه " ا هـ.

والخروج وسيلة من وسائل الدعوة في جماعة التبليغ وليس غاية، وإنما الغاية هي دعوة الآخرين، مع إصلاح وتهذيب النفس، والوسائل تجوز في الشريعة إذا كانت الغاية صحيحة، ولذا قال العلماء: "للوسائل حكم المقاصد" [انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام للإمام عز الدين بن عبد السلام ١/٥٣ – ط. مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة]. وقالوا أيضًا: "الإذن في الشيء إذن في مكملات مقصوده" [انظر: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام للإمام ابن دقيق العيد ٢/٢٩٠، ط . السنة المحمدية].

ولا يلزم أن يشهد الشرع لكل وسيلة تحقق مقصدًا شرعيًا باعتبارها على وجه الانفراد؛ فالشرع يثيب على الوسائل إلى الطاعات كما يثيب على المقاصد، فكأن الملاحظ أولا هو إفضاء الوسيلة للمقصود لا هي من حيث ذاتها، لذلك نص العلماء أيضًا على أن الوسيلة إلى أفضل المقاصد هي أفضل الوسائل، والوسيلة إلى أرذل المقاصد هي أرذل الوسائل " [قواعد الأحكام ١/٥٣، ٥٤]، وأن "الوسائل تسقط بسقوط المقاصد" [قواعد الأحكام ١/١٢١]، وذلك كله بحسب الإفضاء إلى المقصود وعدمه، لا بحسب ذات الوسيلة .

ومن ثم فالخروج مع هذه الجماعة للمشاركة فيما يقومون به من أعمال صالحة ودعوة للآخرين، أمرٌ جائز لا حرج فيه .

والأصل أن الخروج في سبيل الله جائز إن لم يترتب عليه تضييع لحق واجب، فالدعوة إلى الله تعالى التي هي فرض كفاية ليست مدعاة إلى ترك ما أوجبه الله فرضًا عينيًا على الداعي؛ من نحو : النفقة على أهل بيته والقيام بحقوقهم، وقد روى أبو داود عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "كفى بالمرء إثمًا أن يُضَيِّعَ من يقوت " .

ولكن ننبه أيضًا على أن الدعوة إلى الله ليست منحصرة في السفر إلى بلد بعينه أو مع جماعة محددة، فأنت في بلدك وعند أهلك يمكنك أن تقوم بالدعوة إلى الله وإرشاد الناس ونصحهم وحثهم على البر، فالمؤمن كالمطر أينما وقع نفع، ولا يشترط للقيام بالدعوة أن يكون ذلك من خلال منهج معين لجماعة محددة، وإنما يكفي أن يكون سلوك الإنسان في ذلك منضبطًا بالضوابط الشرعية العامة .

فإذا انضبط الخروج بهذه الضوابط، مع الالتزام بعدم الخوض في أمور علمية لا يحسنها إلا العلماء المتخصصون، وكذا عدم الخوض في المسائل الخلافية التي تؤدي إلى التعصب في الرأي، فإننا لا نرى مانعًا من ذلك ما لم يؤد ذلك إلى التقصير في واجبات مقدمة عليه، ولم يترتب عليه إضرارٌ بما أوجبه الله تعالى عليه كإعالة من ولاه الله أمرهم في أثناء خروجهم لمدة طويلة كما تقدم.

وبناءً على ما سبق : فإن جماعة التبليغ والدعوة لها جهود كبيرة في نشر دين الله في العالمين، ودعوة الناس إلى طاعة الله والالتزام بأوامره والبعد عن نواهيه، ولا بأس بالخروج الذي يفعلونه للدعوة والإرشاد ما لم يؤد هذا الخروج إلى التقصير في حق آخر مقدم في الأهمية على ذلك الخروج .

والله سبحانه وتعالى أعلم

أمانة الفتوى

٢٠/٢/٢٠١٤م

فهرس الموضوعات

احرص

على اقتناء السلسلة النافعة

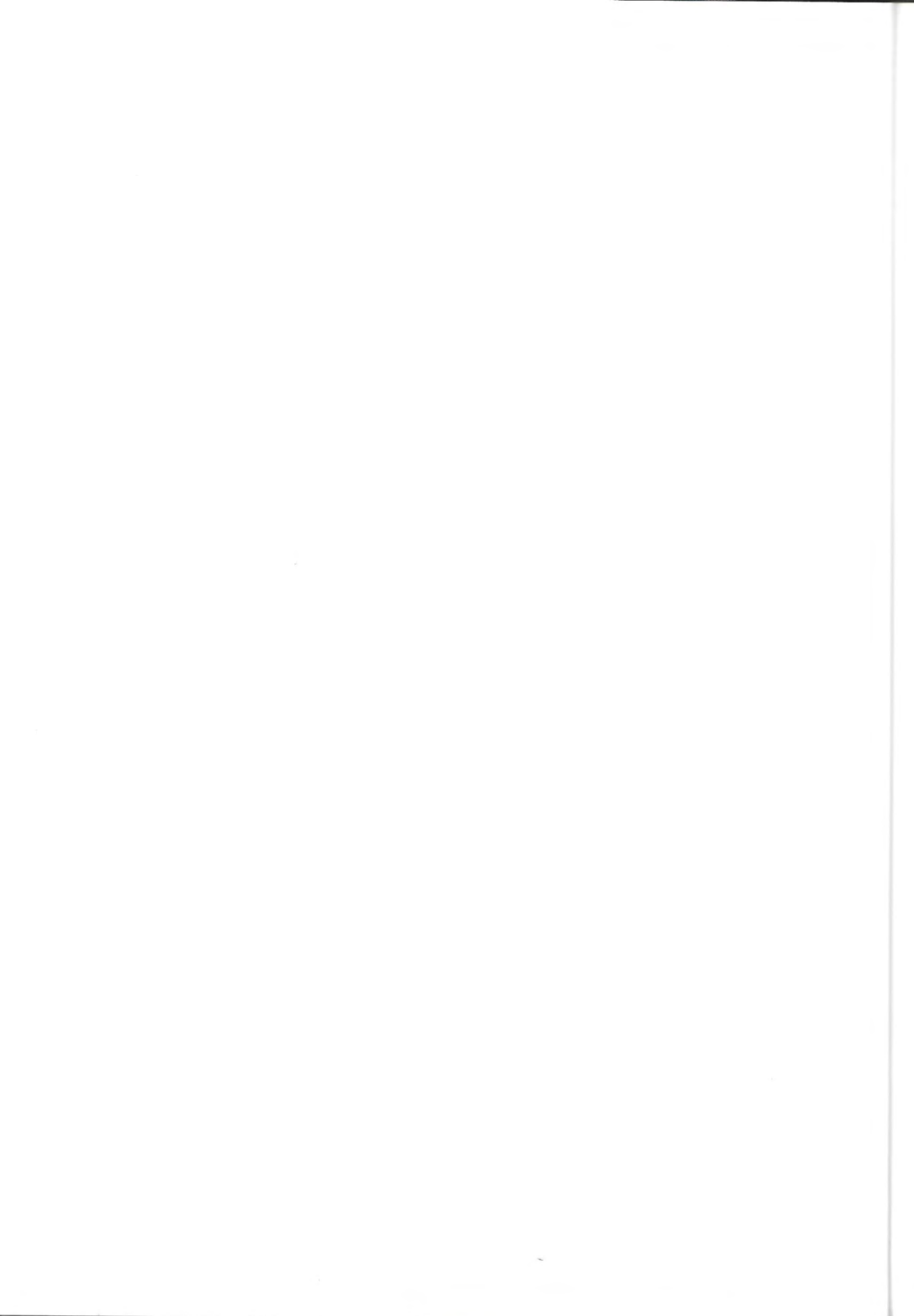
من كتاب

(نظرة علمية في أهل التبليغ والدعوة)

لفضيلة الشيخ / أيمن أبو شادي

تليفون: ٠١٠٦٥٣٣٢٧٦٨

من مكتبات الدعوة بجوار مركز الدعوة




﴿من هم أهل الدعوة﴾
كلمات مضيئة
﴿فتوى دار الإفتاء المصرية﴾
﴿أمانة الفتوى﴾
وأما طواف بعض أفراد الجماعة على الناس في
بيوتهم أو أسواقهم أو في الطرقات وأماكن اللهو
لدعوتهم، فنقول: إنه لا حرج في زيارة الناس
من أجل تذكيرهم ودعوتهم إلى الله سبحانه
وتعالى، إذا روعي في ذلك التقيُّد بضوابط الشرع
وآدابه في الزيارة، بل إن القيام بهذا العمل يُعَدُّ
من أفضل القُرَب، والسعي فيه يدل على علوِّ هِمَّةِ
الساعي، وحبِّه الخير للجميع، مما يعني كمال
إيمانه، مصداقًا لما رواه الشيخان عن أنس بن مالك
رضي الله عنه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:
"لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ
مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ".